المسألة الثانية : الأحرف التى أنزلها اللّه على آدم عليه السلام

وسُئِلَ شيخ الإسلام أبو العباس تقى الدين بن تيمية قدّس اللّه روحه عن رجلين تجادلا في الأحرف التي أنزلها اللّه على آدم . فقال أحدهما : إنها قديمة ليس لها مبتدأ وشكلها ونقطها محدَث . فقال الآخر : ليست بكلام اللّه وهي مخلوقة بشكلها ونقطها ، والقديم هو اللّه وكلامه منه بدأ وإليه يعود ، مُنزّل غير مخلوق ، ولكنه كُتِبَ بها ، وسألا أيهما أصوب قولاً وأصح اعتقاداً ؟

فأجاب : الحمد للّه رب العالمين . أصل هذه المسألة هو معرفة كلام اللّه تعالى ومذهب سَلَف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين – كالائمة الأربعة وغيرهم – ما دلّ عليه الكتاب والسُنَّة ، وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة ، أن القرآن كلام اللّه مُنزّل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل ، وغير ذلك من كلامه ليس مخلوقاً منفصلاً عنه ، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقُدرته ، فكلامه قائم بذاته ، ليس مخلوقاً بائناً عنه ، وهو يتكلم بمشيئته وقُدرته ، لم يقل أحد من سَلَف الأمة أن كلام اللّه مخلوق بائن عنه ، ولا قال أحد منهم أن القرآن أو التوراة أو الإنجيل لازمة لذاته أزلاً وأبداً ، وهو لا يقدر أن يتكلم بمشيئته وقُدرته ، ولا قالوا إن نفس ندائه لموسى أو نفس الكلمة المعينة قديمة أزلية، بل قالوا: لم يزل اللّه متكلماً إذا شاء ، فكلامه قديم بمعنى أنه لم يزل متكلماً إذا شاء. وكلمات اللّه لا نهاية لها كما قال تعالى : ﴿ قُل لَوْ كَانَ البَحْرُ مدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾[١]، واللّهَ سبحانه

---

(١) الكهف : ١٠٩ .

تكلم بالقرآن العربي وبالتوراة العبرية ، فالقرآن العربي كلام الله ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١) ، فقد بيَّن سبحانه أن القرآن الذى يبدل منه آية مكان آية نزَّله روح القدس جبريل - وهو الروح الأمين كما ذكر ذلك في موضع آخر - من الله بالحق ، وبيَّن بعد ذلك أن من الكفار مَن قال : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ (٢) ، كما قال بعض المشركين : يعلمه رجل بمكة أعجمي ، فقال تعالى : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ (٣) أى الذى يضيفون إليه هذا التعليم أعجمى ، ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٣) ، ففى هذا ما يدل على أن الآيات التى هي لسان عربى مبين نزَّلها روح القُدس من الله بالحق كما قال في الآية الأخرى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً ، وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالحَقِّ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ ﴾ (٤) ، والكتاب الذى أُنزل مفصلاً هو القرآن العربى باتفاق الناس ، وقد أخبر أن الذين آتاهم الكتاب يعلمون أنه منزَّل من الله بالحق ، والعلم لا يكون إلا حقاً فقال : ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ ولم يقل : يقولون ، فإن العلم لا يكون إلا حقاً بخلاف القول . وذكر علمهم ذكر مستشهداً به ، وقد فرَّق سبحانه بين إيحائه إلى غير موسى وبين تكليمه لموسى فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ ﴾ ...إلى قوله : ﴿ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾(٥) ، فرَّق سبحانه بين تكليمه لموسى وبين إيحائه لغيره ووكد تكليمه لموسى بالمصدر ، وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ..... إلى قوله : ﴿ بِرُوحِ القُدُسِ ﴾ (٦) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ

---

(١) النحل : ٩٨ - ١٠٣ (٢) النحل : ١٠٣ (٣) النحل : ١٠٣

(٤) الأنعام : ١١٤ (٥) النساء : ١٦٣ - ١٦٥ (٦) البقرة : ٢٥٣

إِلَّا وَحْياً ﴾ ... إلى آخر السورة [١] . فقد بيَّن سبحانه أنه لم يكن لبَشر أن يكلمه الله إلا على أحد الأوجه الثلاثة ، إما وحياً ، وإما من وراء حجاب ، وإما أن يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ، فجعل الوحي غير التكليم .

• تكليم الله ومناداته وكون النداء صوتاً والكلام حروفاً :

والتكليم من وراء حجاب كان لموسى . وقد أخبر في غير موضع أنه ناداه كما قال : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ ﴾ ... الآية [٢] . وقال : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ﴾ ... الآية [٣] . والنداء باتفاق أهل اللُّغة لا يكون إلا صوتاً مسموعاً ، فهذا مما اتفق عليه سَلَف المسلمين وجمهورهم ، وأهل الكتاب يقولون إن موسى ناداه ربه نداءً سمعه بأذنه وناداه بصوت سمعه موسى، والصوت لا يكون إلا كلاماً ، والكلام لا يكون إلا حروفاً منظومة ، وقد قال تعالى : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [٤] ، وقال : ﴿ حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ [٥] ، وقال : ﴿ حَمَ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [٦] ، فقد بيَّن في غير موضع أن الكتاب والقرآن العربي منزَّل من الله .

• صفة الله ما قام بنفسه لا ما يخلقه في غيره ، والطوائف المتنازعة في كلامه :

وهذا معنى قول السَلَف : منه بدأ ، قال أحمد بن حنبل رحمه الله : منه - أي هو المتكلم به ، فإنَّ الذين قالوا إنه مخلوق قالوا خلقه في غيره فبدأ من ذلك المخلوق ، فقال السَلَف : منه بدأ - أي هو المتكلم به لم يخلقه في غيره فيكون كلاماً لذلك المحل الذي خلقه فيه ، فإن الله تعالى إذا خلق صفة من الصفات في

---

(١) الشورى : ٥١ (٢) مريم : ٥٢ (٣) القصص : ٣٠
(٤) الزمر : ١ (٥) فصلت : ١ - ٢ (٦) الجاثية : ١ - ٢

محل كانت الصفة صفة لذلك المحل ولم تكن صفة لرب العالمين ، فإذا خلق طعماً أو لوناً في محل كان ذلك المحل هو المتحرك [1] المتكون به ، وكذلك إذا خلق حياة أو إرادة أو قُدرة أو علماً أو كليهما في محل ، كان ذلك المحل هو المريد القادر العالِم المتكلم بذلك الكلام ، ولم يكن ذلك المعنى المخلوق في ذلك المحل صفة لرب العالمين ، وإنما يتصف الرب تعالى بما يقوم به من الصفات ، لا بما يخلقه في غيره من المخلوقات ، فهو الحي العليم القدير السميع البصير الرحيم المتكلم بالقرآن وغيره من الكلام ، بحياته وعلمه وقُدرته وكلامه القائم به لا بما يخلقه في غيره من هذه المعاني ، ومَن جعل كلامه مخلوقاً لزمه أن يقول : المخلوق هو القائل لموسى : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ [2] ، وهذا ممتنع لا يجوز أن يكون هذا كلاماً إلاّ لرب العالمين ، وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن والتوراة وغير ذلك من الكتب بمعانيها وألفاظها المنتظمة من حروفها لم يكن شئ من ذلك مخلوقاً بل كان ذلك لرب العالمين [3] ، وقد قيل للإمام أحمد بن حنبل : إنَّ فلاناً يقول : لما خلق الله الأحرف سجدت له إلا ألف ، فقالت : لا أسجد حتى أؤمر ، فقال : هذا كفر ، فأنكر على مَن قال : إن الحروف مخلوقة ، لأنه إذا كان جنس الحروف مخلوقاً لزم أن يكون القرآن العربي والتوراة العبرية وغير ذلك مخلوقاً ، وهذا باطل مخالف لقول السَلَف والأئمة ، مخالف للأدلة العقلية والسمعية ، كما قد بُسِطَ في غير هذا الموضع .

---

(١) قوله : « المتحرك » ، غير ظاهر لأن ما قبله ليس فيه معنى الحركة ، فإما أن يكون قد سقط منه شئ ، وإما أن يقال : المتصف أي بالطعم واللون .

(٢) طه : ١٤

(٣) لعل الأصل : صفة أو كلاماً لرب العالمين .

● مذهب الفلاسفة والمتكلمين فى كلام الله وفى الخلق والتكوين :

والناس قد تنازعوا في كلام الله نزاعاً كثيراً . والطوائف الكبار نحو ست فِرق ، فأبعدها عن الإسلام قول مَن يقول من المتفلسفة والصابئة : إن كلام الله إنما هو ما يفيض على النفوس إما من العقل الفعَّال ، وإما من غيره ، وهؤلاء يقولون : إنما كلَّم الله موسى من سماء عقله - أى بكلام حدث فى نفسه لم يسمعه من خارج . وأصل قول هؤلاء أن الأفلاك قديمة أزلية ، وأن الله لم يخلقها بمشيئته وقدرته في ستة أيام كما أخبرت به الأنبياء ، بل يقولون : إنَّ الله لا يعلم الجزئيات ، فلما جاءت الأنبياء بما جاءوا به من الأمور الباهرة جعلوا يتأوَّلون ذلك تأويلات يُحَرِّفون فيها الكَلِمَ عن مواضعه ، ويريدون أن يجمعوا بينها وبين أقوال سَلَفهم الملاحدة ، فقالوا مثل ذلك . وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى ، وهم كثيرو التناقض ، كقولهم إن الصفة هى الموصوف ، وهذه الصفة هى الأخرى ، فيقولون : هو عقل وعاقل ومعقول ، ولذيذ وملتذ ولذة ، وعاشق ومعشوق وعِشق . وقد يُعبِّرون عن ذلك بأنه حي عالِم معلوم محب محبوب ، ويقولون : نفس العلم هو نفس المحبة ، وهو نفس القُدرة ، ونفس العلم هو نفس العالِم . ونفس المحبة هي نفس المحبوب ، ويقولون : إنه علَّة تامة في الأزل . فيجب أن يقارنها معلولها في الأزل فى الزمن وإن كان متقدماً عليها بالعلَّة لا بالزمان . ويقولون : إن العلَّة التامة ومعلولها يقترنان في الزمان ويتلازمان ، فلا يوجد معلول إلا بعلَّة تامة ، ولا تكون علَّة تامة إلا مع معلولها في الزمان . ثم يعترفون بأن حوادث العالَم حدثت شيئاً بعد شئ من غير أن يتجدد من المبدع الأول ما يوجب أنْ يصير علَّة للحوادث المتعاقبة ، بل حقيقة قولهم أن الحوادث حدثت بلا مُحْدِث ، وكذلك عُدِمَت بعد حدوثها من غير سبب يوجب عدمها على أصلهم .

● نظريات الفرق فى القدم بالذات والزمان والحدوث والتسلسل :

وهؤلاء قابلهم طوائف من أهل الكلام ظنوا أن المؤثر التام يتراخى عنه أثره ، وأن القادر المختار يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح ، والحوادث لها ابتداء وقد حدثت به أن لم تكن بدون سبب حادث . ولم يهتد الفريقان للقول الوسط ، وهو أن المؤثر التام مستلزم أن يكون أثره عقب تأثيره التام لا مع التأثير ولا متراخياً عنه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (١) ، فهو سبحانه يُكوِّن كل شئ فيكون عقب تكوينه ، لا مع تكوينه في الزمان ولا متراخياً عن تكوينه ، كما يكوِّن الانكسار عقب الكسر والانقطاع عقب القطع ووقوع الطلاق عقب التطليق ، لا متراخياً عنه ولا مقارناً له في الزمان .

والقائلون بالتراخي ظنوا امتناع حوادث لا تتناهى ، فلزمهم أنَّ الرب لا يمكنه فعل ذلك ، فالتزموا أن الرب يمتنع أن يكون لم يزل متكلماً بمشيئته ، ويمتنع أن يكون لم يزل قادراً على الفعل والكلام بمشيئته ، فافترقوا بعد ذلك ، منهم مَن قال : كلامه لا يكون إلاَّ حادثاً ، لأن الكلام لا يكون إلا مقدوراً مراداً ، وما كان كذلك لا يكون إلا حادثاً ، وما كان حادثاً كان مخلوقاً منفصلاً عنه لامتناع قيام الحوادث به وتسلسلها في ظنهم .

ومنهم مَن قال : بل كلامه لا يكون إلا قائماً به ، وما كان قائماً به لم يكن متعلقاً بمشيئته وإرادته ، بل لا يكون إلا قديم العين ، لأنه لو كان مقدوراً مراداً لكان حادثاً فكانت الحوادث تقوم به ، ولو قامت به لم يسبقها ولم يخل منها ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا أول لها .

ومنهم مَن قال : بل هو متكلم بمشيئته وقُدرته ، لكنه يمتنع أن يكون متكلماً

---

(١) يس : ٨٢

في الأزل ، أو أنه لم يزل متكلماً بمشيئته وقُدرته ، لأن ذلك يستلزم وجود حوادث لا أول لها ، وذلك ممتنع .

قالت هذه الطوائف : ونحن بهذا الطريق علمنا حدوث العالَم فاستدللنا على حدوث الأجسام بأنها لا تخلو من الحوادث ولا تسبقها ، وما لم يسبق الحوادث فهو حادث . ثم من هؤلاء مَن ظن أن هذه قضية ضرورية ولم يتفطن لإجمالها . ومنهم مَن تفطن للفرق بين ما لم يسبق الحوادث المحصورة المحدودة وما يسبق جنس الحوادث المتعاقبة شيئاً بعد شئ . أما الأول فهو حادث بالضرورة لأن تلك الحوادث لها مبدأ معيَّن ، فما لم يسبقها يكون معها أو بعدها وكلاهما حادث .

وأما جنس الحوادث شيئاً بعد شئ فهذا شئ تنازع فيه الناس ، فقيل : إن ذلك ممتنع فى الماضى والمستقبل كقول الجهم وأبى الهذيل . فقال الجهم : بفناء الجنة والنار . وقال أبو الهذيل : بفناء حركات أهلهما . وقيل : بل هو جائز في المستقبل دون الماضي ، لأن الماضى دخل فى الوجود دون المستقبل . وهو قول كثير من طوائف النُظّار . وقيل : بل هو جائز فى الماضى والمستقبل . وهذا قول أئمة أهل الملل وأئمة السُنّة كعبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما ممن يقول بأن الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، وأن كلمات الله لا نهاية لها وهي قائمة بذاته وهو متكلم بمشيئته وقدرته ، وهو أيضا قول أئمة الفلاسفة . لكن أرسطو وأتباعه مدعون ذلك في حركات الفَلَك ويقولون إنه قديم أزلى . وخالفوا فى ذلك جمهور الفلاسفة مع مخالفة الأنبياء والمرسلين وجماهير العقلاء . فإنهم متفقون على أن الله خلق السموات والأرض ، بل هو خالق كل شئ ، وكل ما سوى الله مخلوق حادث كائن بعد أن لم يكن . وأن القديم الأزلى هو الله تعالى بما هو متصف به من صفات الكمال وليست صفاته خارجة عن مسمى اسمه ، بل مَن قال : عبدتُ الله ، ودعوتُ الله ، فإنما عبد ذاته المتصفة بصفات الكمال التى تستحقها ويمتنع وجود ذاته بدون صفاتها اللازمة لها .

● معنى الحدوث وإخبار الرسل بأن الله خلق كل شئ :

ثم لما تكلم في النبوات مَن اتبع أرسطو كابن سينا وأمثاله ورأوا ماجاءت به الأنبياء من إخبارهم بأن الله يتكلم ، وأنه كلّم موسى تكليماً ، وأنه خالق كل شئ ، أخذوا يُحرِّفون كلام الأنبياء عن مواضعه ، فيقولون : الحدوث نوعان ، ذاتى وزمانى ، ونحن نقول إن الفَلَك محدَث الحدوث الزمانى بمعنى أنه معلول وإن كان أزلياً لم يزل مع الله ، وقالوا : إنه مخلوق بهذا الاعتبار ، والكتب الإلهية أخبرت بأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ، والقديم الأزلى لا يكون فى أيام .

● تعارض نظريات الفلاسفة وتناقضهم :

وقد عُلِمَ بالاضطرار أنَّ ما أخبرت به الرسل من أن الله خلق كل شئ وأنه خلق كذا ، إنما أرادوا بذلك أنه خلق المخلوق وأحدثه بعد أن لم يكن ، كما قال: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ (١) ، والعقول الصريحة توافق ذلك وتعلم أن المفعول المخلوق المصنوع لا يكون مقارناً للفاعل في الزمان ولا يكون إلا بعده ، وأن الفعل لا يكون إلا بإحداث المفعول ، وقالوا لهؤلاء : قولكم « إنه مؤثر تام فى الأزل » لفظ مجمل يُراد به التأثير العام فى كل شئ ، ويُراد به التأثير المطلق فى شئ بعد شئ ، ويُراد به التأثير فى شئ معين دون غيره ، فإن أردتم الأول لزم أن لا يحدث فى العالَم حادث ، وهذا خلاف المشاهدة ، وإن أردتم الثاني لزم أن يكون كل ما سوى الله مخلوقاً حادثاً كائناً بعد أن لم يكن ، وإن كان الرب لم يزل متكلماً بمشيئته فعّالاً لما يشاء ، وهذا يناقض قولكم ، ويستلزم أن كل ما سواه مخلوق ، ويوافق ما أخبرت به الرسل ، وعلى هذا يدل العقل الصريح ، فتبين أن العقل الصريح يوافق ما أخبرت به

---

(١) مريم : ٩

الأنبياء ، وإن أردتم الثالث فسد قولكم لأنه يستلزم أنه يشاء حدوثها بعد أن لم يكن فاعلاً لها من غير تجدد سبب يوجب الإحداث ، وهذا يناقض قولكم . فإن صَحَّ هذا جاز أن يُحدِث كل شئ بعد أن لم يكن محدثاً لشئ ، وإن لم يصح هذا بطل ، فقولكم باطل على التقديرين . وحقيقة قولكم أن المؤثر التام لا يكون إلا مع أثره ولا يكون الأثر إلا مع المؤثر التام فى الزمن ، وحينئذ فيلزمكم أن لا يحدث شئ ، ويلزمكم أنَّ كل ما حدث حدث بدون مؤثر ، ويلزمكم بطلان الفرق بين أثر وأثر ، وليس لكم أن تقولوا : بعض الآثار يقارن المؤثر التام وبعضها يتراخى عنه .

وأيضاً فكونه فاعلاً لمفعول معينٌ مقارن له أزلاً وأبداً - باطل في صريح العقل ، وأيضاً فأنتم وسائر العقلاء موافقون على أن الممكن الذى لا يكون ممكناً يقبل الوجود والعدم ، وهو الذى جعلتموه الممكن الخاص الذي قسيمه الضرورى الواجب ، والضرورى الممتنع لا يكون إلا موجوداً تارة ومعدوماً أخرى، وأن القديم الأزلى لا يكون إلا ضرورياً واجباً يمتنع عدمه . وهذا مما اتفق عليه أرسطو وأتباعه حتى ابن سينا ، وذكره في كتبه المشهورة كـ « الشفاء » وغيره.

ثم تناقض فزعم أن الفَلَك ممكن مع كونه قديماً أزلياً لم يزل ولا يزال ، وزعم أن الواجب بغيره القديم الأزلى الذى يمتنع عدمه يكون ممكناً يقبل الوجود والعدم ، وزعم أنَّ له ماهية غير وجوده . وقد بُسِطَ الكلام على فساد قول هؤلاء وتناقضه فى غير هذا الموضع .

• نقض نظريات الجهمية والمعتزلة والكلابية فى صفة الكلام :

والقول الثانى للناس فى كلام اللّه تعالى - قول مَن يقول : إن اللّه لم يقم به صفة من الصفات ، لا حياة ولا علم ولا قُدرة ولا كلام ولا إرادة ولا رحمة ولا غضب ولا غير ذلك ، بل خلق كلاماً في غيره فذلك المخلوق هو كلامه ، وهذا قول الجهمية والمعتزلة . وهذا القول أيضاً مخالف للكتاب والسُنَّة وإجماع

السَلَف ، وهو مناقض لأقوال الأنبياء ونصوصهم ، وليس مع هؤلاء عن الأنبياء قول يوافق قولهم ، بل لهم شُبه عقلية فاسدة قد بيَّنا فسادها في غير هذا الموضع . وهؤلاء زعموا أنهم يقيمون الدليل على حدوث العالَم بتلك الحُجَج ، وهم لا الإسلام نصروا ، ولا لأعدائه كسروا .

والقول الثالث ، قول مَن يقول : إنه يتكلم بغير مشيئته وقُدرته بكلام قائم بذاته أزلاً وأبداً ، وهؤلاء موافقون لمن قبلهم فى أصل قولهم ، لكن قالوا : الرب يقوم به الصفات ولا يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقُدرته من الصفات الاختيارية .

وأول مَن اشتُهِرَ عنه أنه قال هذا القول في الإسلام عبد اللّه بن سعيد بن كلاب . ثم افترق موافقوه ، فمنهم مَن قال : ذلك الكلام معنى واحد هو الأمر بكل مأمور ، والنهى عن كل محظور ، والخبر عن كل مخبر عنه ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة . وقالوا : معنى القرآن والتوراة والإنجيل واحد ، ومعنى آية الكرسى هو معنى آية الدَّين . وقالوا : الأمر والنهي والخبر صفات الكلام لا أنواع له . ومن محققيهم من جعل المعنى يعود الى الخبر ، والخبر يعود إلى العلم .

• بطلان قول الكلابية وغيرهم أن اللّه لا يتكلم بمشيئة :

وجمهور العقلاء يقولون : قول هؤلاء معلوم الفساد بالضرور . وهؤلاء يقولون : تكليمه لموسى ليس إلاَّ خلق إدراك يفهم به موسى ذلك المعنى . فقيل لهم : أفَهِمَ كل الكلام أم بعضه ؟ إن كان فهمه كله فقد عَلِمَ عِلْمُ اللّه ، وإن كان فَهِمَ بعضه فقد تبعض ، وعندهم كلام اللّه لا يتبعض ولا يتعدد . وقيل لهم : قد فرَّق اللّه بين تكليمه لموسى وإيحائه لغيره . وعلى أصلكم لا فرق . وقيل لهم : قد كَفَّرَ اللّه مَن جعل القرآن العربى قول البَشر ، وقد جعله تارة قول رسول من

البَشر ، وتارة قول رسول من الملائكة ، فقال في موضع : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) ، فهذا الرسول محمد ﷺ . وقال في الآية الاخرى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ (٢) فهذا جبريل ، فأضافه تارة إلى الرسول الملكي ، وتارة إلى الرسول البَشري . والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس . وكان بعض هؤلاء ادعى أن القرآن العربي أحدثه جبريل أو محمد فقيل لهم : لو أحدثه أحدهما لم يجز إضافته إلى الآخر . وهو سبحانه أضافه إلى كل منهما باسم الرسول الدال على مرسله لا باسم المَلَك والنبي ، فدَلَّ ذلك على أنه قول رسول بلَّغه عن مرسله لا قول مَلَك أو نبي أحدثه من تلقاء نفسه ، بل قد كفَّر مَن قال إنه قول البَشر .

والطائفة الأخرى التي وافقت ابن كلاب على أنَّ الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته قالت : بل الكلام القديم هو حروف ، أو حروف وأصوات لازمة لذات الرب أزلاً وأبداً ، لا يتكلم بها بمشيئته وقُدرته ، ولا يتكلم بها شيئاً بعد شئ . ولا يُفرِّق هؤلاء بين جنس الحروف وجنس الكلام وبين عين الحروف قديمة أزلية ، وهذا أيضاً مما يقول جمهور العقلاء أنه معلوم الفساد بالضرورة ، فإن الحروف المتعاقبة شيئاً بعد شئ يمتنع أن يكون كل منها قديماً أزلياً وإن كان جنسها قديماً ، لإمكان وجود كلمات لا نهاية لها وحروف متعاقبة لا نهاية لها ، وامتناع كون كل منها قديماً أزلياً ، فإن المسبوق بغيره لا يكون أزلياً ، وقد فرَّق بعضهم بين وجودها وماهيتها فقال : الترتيب في ماهيتها لا في وجودها ، وبطلان هذا القول معلوم بالاضطرار لمن تدبره ، فإن ماهية الكلام الذي هو حروف لا يكون شيئاً بعد شئ ، والصوت لا يكون إلا شيئاً بعد شئ ، فامتنع أن يكون وجود الماهية المعيَّنة

---

(١) الحاقة : ٤٠ - ٤٢ (٢) التكوير : ١٩ - ٢١

أزلياً متقدماً عليها به ، مع أن الفرق بينهما بيِّنٌ لو قُدِّر الفرق بينهما ، ويلزم من هذين الوجهين أن يكون وجودها أيضاً مترتباً ترتيباً متعاقباً .

ثم من هؤلاء مَن يزعم أن ذلك القديم هو ما يُسمع من العباد من الأصوات بالقرآن والتوراة والإنجيل أو بعض ذلك ، وكان أظهر فساداً مما قبله ، فإنه يعلم بالضرورة حدوث أصوات العباد .

وطائفة خامسة قالت : بل اللّه يتكلم بمشيئته وقدرته بالقرآن العربى وغيره، لكن لم يكن يمكنه أن يتكلم بمشيئته فى الأزل لامتناع حوادث لا أولها ، وهؤلاء جعلوا الرب فى الأزل غير قادر على الكلام بمشيئته ولا على الفعل كما فعله أُولئك ، ثم جعلوا الفعل والكلام ممكناً مقدوراً من غير تجدد شئ أوجب القُدرة والإمكان كما قال أولئك فى المفعولات المنفصلة .

• مذهب السَلَف فى كلام اللّه القائم بذاته وتكليمه بالعربية وغيرها :

وأما السَلَف فقالوا : لم يزل اللّه متكلماً إذا شاء ، وأن الكلام صفة كمال ، ومَن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، كما أنَّ مَن يعلم ويقدر أكمل ممن لا يعلم ولا يقدر ، ومَن يتكلم بمشيئته وقُدرته أكمل ممن يكون الكلام لازماً لذاته ليس له عليه قُدرة ولا له فيه مشيئة . والكمال إنما يكون بالصفات القائمة بالموصوف لا بالأمور المباينة له ، ولا يكون الموصوف متكلماً عالماً قادراً إلا بما يقوم به من الكلام والعلم والقُدرة . وإذا كان كذلك فمن لم يزل موصوفاً بصفات الكمال أكمل ممن حدثت له بعد أن لم يكن متصفاً بها لو كان حدوثها ممكناً . فكيف إذا كان ممتنعاً ؟ فتبيَّن أن الرب لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الكمال ، منعوتاً بنعوت الجلال ، ومن أجَلِّها الكلام ، فلم يزل متكلماً إذا شاء ولا يزال كذلك ، وهو يتكلم إذا شاء بالعربية كما تكلم بالقرآن العربى ، وما تكلم اللّه به فهو

قائم به ليس مخلوقاً منفصلاً عنه ، فلا تكون الحروف التى هى مبانى أسماء اللّه الحُسنىٰ وكتبه المنزّلة مخلوقة لأن اللّه تكلم بها .

* * *

فصل

فى سبب نزاع المتأخرين فى الحروف التى فى الكلام

ثم تنازع بعض المتأخرين في الحروف الموجودة فى كلام الآدميين ، وسبب نزاعهم أمران : أحدهما : أنهم لم يَفرّقوا بين الكلام الذى يتكلم اللّه به فيُسمع منه ، وبين ما إذا بلّغه عنه مُبلّغ فسُمع من ذلك المُبلّغ ، فإن القرآن كلام اللّه تكلم به بلفظه ومعناه بصوت نفسه ، فإذا قرأه القُرّاء قرأوه بأصوات أنفسهم . فإذا قال القارئ : ﴿ الحَمْدُ للّه رَبِّ العَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴾ (١) كان هذا الكلام المسموع منه كلام اللّه لا كلام نفسه ، وكان هو قرأه بصوت نفسه لا بصوت اللّه ، فالكلام كلام البارئ ، والصوت صوت القارئ ، كما قال النبي ﷺ : « زيّنوا القرآن بأصواتكم » ، وكان يقول : « ألا رجل يحملنى إلى قومه لأبلّغ كلام ربى فإن قريشاً قد منعونى أن أُبلّغ كلام ربى » ، وكلا الحديثين ثابت، فبيّن أن الكلام الذى بلّغه كلام ربه ، وبيّن أن القارئ يقرأه بصوت نفسه ، وقال ﷺ : « ليس منا مَن لم يتغن بالقرآن » ، قال أحمد والشافعي وغيرهما : هو تحسينه بالصوت ، قال أحمد بن حنبل : يُحَسّنه بصوته ، فبيّن أحمد أن القارئ يحسن القرآن بصوت نفسه .

والسبب الثاني : أن السَلَف قالوا : كلام اللّه مُنزّل غير مخلوق ، وقالوا : لم يزل متكلماً إذا شاء ، فبيّنوا أن كلام اللّه قديم ، أى جنسه قديم لم يزل ، ولم

---

(١) الفاتحة : ٢ - ٣

يقل أحد منهم أنَّ نفس الكلام المعيَّن قديم ، ولا قال أحد منهم القرآن قديم ، بل قالوا إنه كلام اللّه منزل غير مخلوق ، وإذا كان اللّه قد تكلم بالقرآن بمشيئته كان القرآن كلامه ، وكان منزّلاً منه غير مخلوق ، ولم يكن مع ذلك أزلياً قديماً بقدم اللّه ، وإن كان الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، فجنس كلامه قديم . فمَن فهم قول السَلَف وفرَّق بين هذه الأقوال زالت عنه الشُبهات فى هذه المسائل المعضلة التى اضطرب فيها أهل الأرض .

● الأقوال فى قدم الحروف وخلقها وكلام اللّه وصفاته :

فمَن قال : إن حروف المعجم كلها مخلوقة وإن اللّه تعالى [1] مخالفاً للمعقول الصريح ، والمنقول الصحيح ، ومَن قال : إنَّ نفس أصوات العباد أو مِدادهم أو شيئاً من ذلك قديم ، فقد خالف أيضاً أقوال السَلَف ، وكان فساد قوله ظاهراً لكل أحد ، وكان مبتدعاً قولاً لم يقله أحد من أئمة المسلمين ولا قالته طائفة كبيرة من طوائف المسلمين ، بل الأئمة الأربعة وجمهور أصحابهم بريئون من ذلك . ومَن قال : إن الحرف المعين أو الكلمة المعينة قديمة العين ، فقد ابتدع قولاً باطلاً في الشرع والعقل . ومَن قال : إن جنس الحروف التى تكلم اللّه بها بالقرآن وغيره ليست مخلوقة ، وأن الكلام العربى الذى تكلم به ليس مخلوقاً ، والحروف المنتظمة منه جزء منه ولازمة له ، وقد تكلم اللّه بها فلا تكون مخلوقة فقد أصاب .

وإذا قال : إنَّ اللّه هدى عباده وعلَّمهم البيان فأنطقهم بها باللُغات المختلفة وأنعم عليهم بأن جعلهم ينطقون بالحروف التى هى مباني كتبه وكلامه وأسمائه

---

(١) كذا بالأصل ، ويظهر أنه قد سقط من هنا شئ فإن قوله : « وإن اللّه تعالى » ليس له خبر يتم به الكلام . وهو تمهيد للجواب عن الأقوال التى تقدم سؤال شيخ الإسلام عنها فى صفحة ٤٧ وفيه أن الذين قالوا إنها مخلوقة بشكلها ونقطها ... إلخ ، وقوله : « مخالفاً للمعقول » سقط من قبله العامل فيه ولعله : « فقد قال قولاً مخالفا » ... إلخ .

فهذا قد أصاب ، فالإنسان وجميع ما يقوم به من الأصوات والحركات وغيرها مخلوق كائن بعد أن لم يكن ، والرب تعالى بما يقوم به من صفاته وكلماته وأفعاله غير مخلوق ، والعباد إذا قرأوا كلامه فإن كلامه الذى يقرؤنه هو كلامه لا كلام غيره ، وكلامه الذي تكلم به لا يكون مخلوقاً وكان مايقرؤن به كلامه من حركاتهم وأصواتهم مخلوقاً ، وكذلك ما يُكتب في المصاحف من كلامه فهو كلامه مكتوباً في المصاحف وكلامه غير مخلوق ، والمداد الذى يُكتب به كلامه وغير كلامه مخلوق . وقد فرّق سبحانه وتعالى بين كلامه وبين مداد كلماته بقوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ (١) ، وكلمات اللّه غير مخلوقة ، والمداد الذى يُكتب به كلمات اللّه مخلوق ، والقرآن المكتوب في المصاحف غير مخلوق ، وكذلك المكتوب في اللّوح المحفوظ وغيره ، قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ كَلا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿يَتْلُواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (٥) .

* * *

فصل

فى أنَّ إنزال الحروف على آدم من الإسرائيليات

فهذان المتنازعان اللذان تنازعا فى الأحرف التى أنزلها اللّه على آدم ، فقال أحدهما : إنها قديمة وليس لها مبتدأ ، وشكلها ونقطها محدث . وقال الآخر :

---

(١) الكهف : ١٠٩ (٢) البروج : ٢١ - ٢٢ (٣) عبس : ١١ - ١٤
(٤) البينة : ٢ - ٣ (٥) الواقعة : ٧٧ - ٧٩

إنها ليست بكلام ، وأنها مخلوقة بشكلها ونقطها ، وأنَّ القديم هو اللّه وكلامه منه بدأ وإليه يعود منزّل غير مخلوق ، ولكنه كُتِبَ بها . وسؤالهما أن نبيِّن لهما الصواب وأيهما أصح اعتقاداً ؟

يقال لهما : يحتاج بيان الصواب إلى بيان ما فى السؤال من الكلام المجمل ، فإن كثيراً من نزاع العقلاء لكونهما[1] لا يتصوران مورد النزاع تصوراً بيِّناً ، وكثير من النزاع قد يكون الصواب فيه فى قول آخر غير القولين اللذين قالاهما ، وكثير من النزاع قد يكون مبنياً على أصل ضعيف إذا بُيِّنَ فساده ارتفع النزاع .

• لا يجوز الاعتماد على الإسرائيليات إلا ما ثبت بنص مرفوع متواتر :

فأول ما في هذا السؤال قولهما : الأحرف التى أنزلها اللّه على آدم ، فإنه قد ذكر بعضهم أن اللّه أنزل عليه حروف المعجم مفرقة مكتوبة ، وهذا ذكره ابن قتيبة فى المعارف ، وهو ومثله يوجد فى التواريخ كتاريخ ابن جرير الطبرى ونحوه ، وهذا ونحوه منقول عمن ينقل الأحاديث الإسرائيلية ونحوها من أحاديث الأنبياء المتقدمين ، مثل وهب بن منبه ، وكعب الأحبار ، ومالك بن دينار ، ومحمد بن إسحاق وغيرهم . وقد أجمع المسلمون على أن ما ينقله هؤلاء عن الأنبياء المتقدمين لا يجوز أن يُجعل عمدة في دين المسلمين إلاّ إذا ثبت ذلك بنقل متواتر ، أو أن يكون منقولاً عن خاتم المرسلين ، وأيضاً فهذا النقل قد عارضه نقل آخر وهو أن أول مَن خط وخاط إدريس . فهذا منقول عن بعض السَلَف وهو مثل ذلك وأقوى ، فقد ذكروا فيه أن إدريس أول مَن خاط الثياب وخط بالقلم ، وعلى هذا فبنو آدم من قبل إدريس لم يكونوا يكتبون بالقلم ولا يقرؤن كتباً . والذى في حديث أبى ذر المعروف عن أبى ذر عن النبى ﷺ :

---

(١) أى لكون المتنازعين منهم .

« إنَّ آدم كان نبياً مُكلَّماً كَلَّمه اللّه قبلاً » ، وليس فيه أنه أنزل عليه شيئاً مكتوباً ، فليس فيه أنَّ اللّه أنزل على آدم صحيفة ولا كتاباً ، ولا هذا معروف عند أهل الكتاب ، فهذا يدل على أن هذا لا أصل له ، ولو كان هذا معروفاً عند أهل الكتاب لكان هذا النقل ليس هو في القرآن ولا في الأحاديث الصحيحة عن النبى ﷺ ، وإنما هو من جنس الأحاديث الإسرائيلية التى لا يجب الإيمان بها ، بل ولا يجوز التصديق بصحتها إلا بحُجَّة ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « إذا حدَّثكم أهل الكتاب فلا تُصَدِّقوهم ولا تُكَذِّبوهم ، فإما أن يحدثوكم بحق فتُكَذِّبوه ، وإما أن يحدثوكم بباطل فتُصَدِّقوه » .

واللّه سبحانه عَلَّمَ آدم الأسماء كلها وأنطقه بالكلام المنظوم . وأما تعليم حروف مقطعة لا سيما إذا كانت مكتوبة فهو تعليم لا ينفع ، ولكن لما أرادوا تعليم المبتدىء بالخط صاروا يعلمونه الحروف المفردة حروف الهجاء ، ثم يعلمونه تركيب بعضها إلى بعض فيعلم أبجد هوز . وليس هذا وحده كلاماً .

● ما روى فى نزول الحروف على آدم وتفسير « أبجد هوز » ... إلى آخره ، كذب باطل :

فهذا المنقول عن آدم من نزول حروف الهجاء عليه لم يثبت به نقل ، ولم يدل عليه عقل ، بل الأظهر فى كليهما نفيه ، وهو من جنس ما يروونه عن النبى ﷺ من تفسير « ا ب ت ث ... » ، وتفسير « أبجد هوز حطى ... » ، ويروونه عن المسيح أنه قال لمعلمه فى الكُتَّاب . وهذا كله من الأحاديث الواهية بل المكذوبة . ولا يجوز باتفاق أهل العلم بالنقل أن يُحتج بشىء من هذه وإن كان قد ذكرها طائفة من المصنفين في هذا الباب كالشريف المزيدى والشيخ أبى الفرج وابنه عبد الوهاب وغيرهم . وقد يذكر ذلك طائفة من المُفَسِّرين والمؤرخين ، فهذا كله عند أهل العلم بهذا الباب باطل لا يُعتمد عليه فى شىء من الدين . وهذا وإن كان قد ذكره أبو بكر النقاش وغيره من المُفَسِّرين عن النقاش ونحوه

نقله الشريف المزيدى الحرانى وغيره [1] فأجَلُّ مَن ذكر ذلك من المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى وقد بيَّن فى تفسيره أنَّ كل ما نُقِلَ فى ذلك عن النبى ﷺ فهو باطل . فذكر فى آخر تفسيره اختلاف الناس فى تفسير « أبجد هوز حطى ... » وذكر حديثاً رواه من طريق محمد بن زياد الجزرى عن فرات بن أبى الفرات عن معاوية بن قرة عن أبيه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « تعلّموا أباجاد وتفسيرها ، ويل لعالم جهل تفسير أبى جاد » قال : قالوا : يا رسول اللّه ، وما تفسيرها ؟ قال : « أما الألف فآلاء اللّه وحرف من أسمائه ، وأما الباء فبهاء اللّه ، وأما الجيم فجلال اللّه ، وأما الدال فدين اللّه ، وأما الهاء فالهاوية ، وأما الواو فويل لمن سها ، وأما الزاى فالزاوية ، وأما الحاء فحطوط الخطايا عن المستغفرين بالأسحار » ... وذكر تمام الحديث من هذا الجنس . وذكر حديثاً ثانياً من حديث عبد الرحيم بن واقد : حدثنى الفرات بن السائب عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : « ليس شىء إلاّ وله سبب ، وليس كل أحد يفطن له ولا بلغه ذلك ، إن لأبى جاد حديثاً عجيباً ، أما « أبو جاد » فأبى آدم الطاعة وجَدٌ فى أكل الشجرة ، وأما « هوز » فزل آدم فهوى من السماء إلى الأرض ، وأما « حطى » فحطت عنه خطيئته ، وأما « كلمن » فأكله من الشجرة ، ومَنٌ عليه بالتوبة » - وساق تمام الحديث من هذا الجنس . وذكر حديثاً ثالثاً من حديث إسماعيل بن عياش عن إسماعيل بن يحيى عن ابن أبى مليكة عمن حدثه عن ابن مسعود ومسعر بن كدام عن أبى سعيد قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إنَّ عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب ليُعلّمه ، فقال له المعلم : اكتب « بسم اللّه »، فقال له عيسى : وما بسم اللّه ؟ فقال له المعلم : ما أدرى . فقال له عيسى : الباء بهاء اللّه ، والسين سناؤه ، والميم مُلكه ، واللّه إله الآلهة ،

---

(١) فى هذا التركيب نظر ، والمعنى : أن هذا إن كان النقاش والمزيدى وأبو الفرج وابنه قد ذكروه وسكتوا عليه فابن جرير قد ذكره وصرّح ببطلانه وهو أجل منهم .

والرحمن رحمن الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة . أبو جاد : ألف : آلاء الله ، وباء : بهاء الله ، وجيم : جمال الله ، ودال : الله الدائم ، وهوز : هاء الهاوية» - وذكر حديثاً من هذا الجنس وذكره عن الربيع بن أنس موقوفاً عليه.

وروى أبو الفرج المقدسى عن الشريف المزيدى حديثا عن عمر عن النبى ﷺ فى تفسير « ا ب ت ث ... » من هذا الجنس .

• جرح رواة أحاديث أبى جاد :

ثم قال ابن جرير : ولو كانت الأخبار التى رويت عن النبى ﷺ فى ذلك صحاح الأسانيد لم يعدل عن القول بها إلى غيرها ، ولكنها واهية الأسانيد غير جائز الاحتجاج بمثلها . وذلك أن محمد بن زياد الجزرى الى حدّث حديث معاوية ابن قرة عن فرات عنه غير موثوق بنقله ، وأن عبد الرحيم بن واقد الذى خالفه فى رواية ذلك عن الفرات مجهول غير معروف عند أهل النقل . وأن إسماعيل ابن يحيى الذى حدّث عن ابن أبى مليكة غير موثوق بروايته ولا جائز عند أهل النقل الاحتجاج بأخباره .

قلت : إسماعيل بن يحيى هذا يقال له « التيمى » ، كوفى معروف بالكذب، ورواية إسماعيل بن عياش فى غير الشاميين لا يُحتج بها ، بل هو ضعيف فيما ينقله عن أهل الحجاز وأهل العراق ، بخلاف ما ينقله عن شيوخه الشاميين فإنه حافظ لحديث أهل بلده كثير الغلط فى حديث أولئك ، وهذا متفَق عليه بين أهل العلم بالرجال ، وعبد الرحمن بن واقد لا يُحتج به باتفاق أهل العلم ، وفرات بن السائب ضعيف أيضاً لا يُحتج به ، فهو فرات بن أبى الفرات ، ومحمد بن زياد الجزرى ضعيف أيضاً .

• التنازع فى معنى « أبجد هوز » والصواب فيه :

وقد تنازع الناس فى « أبجد هوز حطى ... » ؛ فقال طائفة : هى أسماء قوم ، قيل : أسماء ملوك مدين أو أسماء قوم كانوا ملوكاً جبابرة .

وقيل : هى أسماء الستة الأيام التى خلق الله فيها الدنيا . والأول اختيار الطبرى . وزعم هؤلاء أن أصلها « أبو جاد » مثل أبى عاد ، و « هواز » مثل رواد وجواب . وأنها لم تعرب لعدم العقد والتركيب .

والصواب أن هذه ليست أسماء لمسيات ، وإنما أُلِّفت ليُعرف تأليف الأسماء من حروف المعجم بعد معرفة حروف المعجم . ولفظها : « أبجد ، هوز ، حطى ... » ليس لفظها « أبو جاد ، هواز » . ثم كثير من أهل الحساب صاروا يجعلونها علامات على مراتب العدد ، فيجعلون الألف واحداً ، والباء اثنين ، والجيم ثلاثة ، إلى الياء ... ثم يقولون : الكاف عشرون ... وآخرون من أهل الهندسة والمنطق يجعلونها علامات على الخطوط المكتوبة ، أو على ألفاظ الأقيسة المؤلَّفة كما يقولون : كل ألف ب ، وكل ب ج ، فكل ألف ج . ومثَّلوا بهذه لكونها ألفاظاً تدل على صورة الشكل . والقياس لا يختص بمادة دون مادة ، كما جعل أهل التصريف لفظ « فعل » تقابل الحروف الأصلية ، والزائدة ينطقون بها . ويقولون : وزن استخرج : استفعل ، وأهل العروض يزنون بألفاظ مؤلَّفة من ذلك لكن يراعون الوزن من غير اعتبار بالأصل والزائد ، ولهذا سُئِلَ بعض هؤلاء عن وزن « نكتل » فقال : نفعل ، وضحك منه أهل التصريف ووزنه عندهم « نفتل » فإن أصله : نكتال ، وأصل « نكتال » : نكتيل تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً ، ثم لما جزم الفعل سقطت ، كما نقول مثل ذلك فى : « نعتد » و « نقتد » من اعتاد يعتاد ، واقتاد البعير يقتاده .

ونحو ذلك فى « نقتيل » فلما حذفوا الألف التى تسمى لام الكلمة صار وزنها وجعلت ثمانية تكون متحركة وهى الهمزة [1] ، وتكون ساكنة وهى حرفان

---

(١) قوله : « ونحو ذلك فى نقتيل » - إلى هنا - محرف ، فكلمة « نقتيل » ليست من الناقص فتكون لام الكلمة فى وزنها ألفاً منقلبة ، وقوله : « صار وزنها » قد سقط خبره ، ولو ذكر لعرفنا أصل الكلمة ، وقوله : « جعلت ثمانية » غير مفهوم فيفهم به ما قبله وما بعده .. إلخ .

على الاصطلاح الأول وحرف واحد على الثانى ، والألف تقرن بالواو والياء لأنهن حروف العلّة ، ولهذا ذكرت فى آخر حروف المعجم ، ونطقوا بأول لفظ كل حرف منها إلاّ الألف فلم يمكنهم أن ينطقوا بها ابتداءً فجعلوا اللام قبلها فقالوا : « لاَ » ، والتى فى الأول هى الهمزة المتحركة فإن الهمزة فى أولها . وبعض الناس ينطق بها « لام ألف » والصواب أن ينطق بها « لا » وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا أن العلم لا بد فيه من نقل مصدق ونظر محقق . وأما النقول الضعيفة لا سيما المكذوبة فلا يُعتمد عليها . وكذلك النظريات الفاسدة والعقليات الجهلية الباطلة لا يُحتج بها .

● الحروف المفردة وأسماء الأعلام فى القرآن وفى كلام الناس :

الثانى : أن يقال هذه الحروف الموجودة فى القرآن العربى قد تكلّم الله بها بأسماء حروف مثل قوله : ﴿ آلَمَ ﴾ ، وقوله : ﴿ آلمص ﴾ ، وقوله : ﴿ آلم - طس - حم - كهيعص - حمعسق - ن - ق ﴾ فهذا كله كلام الله غير مخلوق.

الثالث : أن هذه الحروف إذا وجدت فى كلام العباد ، وكذلك الأسماء الموجودة فى القرآن إذا وجدت فى كلام العباد مثل : آدم ونوح ومحمد وإبراهيم ... وغير ذلك ، فيقال هذه الأسماء وهذه الحروف قد تكلم الله بها لكن لم يتكلم بها مفردة ، فإن الاسم وحده ليس بكلام ولكن يتكلم بها فى كلامه الذى أنزله فى مثل قوله : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّه ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ آمناً ﴾ ... إلى قوله : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنى مُقيمَ الصَّلَاة وَمن ذُرِّيَّتى ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ (٣) ، .. ونحو ذلك . ونحن إذا تكلمنا

(١) الفتح : ٢٩ (٢) إبراهيم : ٣٥ - ٤٠ (٣) آل عمران : ٣٣

بكلام ذكرنا فيه هذه الأسماء فكلامنا مخلوق وحروف كلامنا مخلوقة ، كما قال أحمد بن حنبل لرجل : ألستَ مخلوقا ؟ قال : بلى ، قال : أليس كلامك منك ؟ قال : بلى ، قال : أليس كلامك مخلوقاً ؟ قال : بلى ، قال : فالله تعالى غير مخلوق ، وكلامه منه ليس بمخلوق .

• ما أطلق على الله وعلى عباده من الصفات :

فقد نص أحمد وغيره على أن كلام العباد مخلوق ، وهم إنما يتكلمون بالأسماء والحروف التى يوجد نظيرها في كلام الله تعالى ، لكن الله تعالى تكلم بها بصوت نفسه وحروف نفسه وذلك غير مخلوق ، وصفات الله تعالى لا تماثل صفات العباد . فإن الله تعالى ليس كمثله شيء ، لا فى ذاته ولا صفاته ولا أفعاله . والصوت الذى ينادى به عباده يوم القيامة والصوت الذى سمعه منه موسى ليس كأصوات شيء من المخلوقات . والصوت المسموع هو حروف مؤلّفة ، وتلك لا يماثلها شيء من صفات المخلوقين ، كما أنّ علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عباده ، فإن الله لا يماثل المخلوقين فى شيء من الصفات ، وهو سبحانه قد علّم العباد من علمه ما شاء كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [1] ، وهم إذا علّمهم الله ما علّمهم من علمه فنفس علمه الذى اتصف به ليس مخلوقاً ، ونفس العباد وصفاتهم مخلوقة ، لكن قد ينظر الناظر إلى مسمى العلم مطلقاً ، فلا يقال إن ذلك العلم مخلوق لاتصاف الرب به ، وإن كان ما يتصف به العبد مخلوقاً .

• اشتراك صفات الله وصفات عباده بالأسماء للضرورة :

وأصل هذا أن ما يوصف الله به ويوصف به العباد يوصف الله به على

---

(١) البقرة : ٢٥٥

ما يليق به [1] ، ويوصف به العباد بما يليق بهم من ذلك ، مثل الحياة والعلم والقُدرة والسمع والبصر والكلام ، فإنَّ اللّه له حياة وعلم وقُدرة وسمع وبصر وكلام . فكلامه يشتمل على حروف ، وهو يتكلم بصوت نفسه ، والعبد له حياة وعلم وقُدرة وسمع وبصر وكلام ، وكلام العبد يشتمل على حروف ، وهو يتكلم بصوت نفسه . فهذه الصفات لها ثلاث اعتبارات : تارة تعتبر مضافة إلى الرب . وتارة تعتبر مضافة إلى العبد ، وتارة تعتبر مطلقة لا تختص بالرب ولا بالعبد . فإذا قال العبد : حياة اللّه وعلم اللّه وقدرة اللّه وكلام اللّه ... ونحو ذلك ، فهذا كله غير مخلوق ولا يماثل صفات المخلوقين ، وإذا قال : علم العبد وقدرة العبد وكلام العبد، فهذا كله مخلوق ولا يماثل صفات الرب . وإذا قال : العلم والقدرة والكلام ، فهذا مجمل مطلق لا يقال عليه كله إنه مخلوق ولا إنه غير مخلوق ، بل ما اتصف به الرب من ذلك فهو غير مخلوق ، وما اتصف به العبد من ذلك فهو مخلوق . فالصفة تتبع الموصوف . فإن كان الموصوف هو الخالق فصفاته غير مخلوقة ، وإن كان الموصوف هو العبد المخلوق فصفاته

---

(١) يعنى أن الاشتراك فى إطلاق الوصف لا يقتضى المساواة ولا المشابهة فى الصفة فضلاً عن مشابهة الموصوف . وقد اختلف العلماء هل هو اشتراك فى الجنس أو فى الاسم ؟ وسببه أنه لا يمكن تعريف الوحى والرسل عباد اللّه بربهم وصفاته إلا بلغاتهم التى يفهمونها : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (إبراهيم : ٢٤) فكان لا بد من تسميته صفاته تعالى بأسماء صفاتهم التى تدل عليها مع إعلامهم بعدم مماثلتها لها ، قال الغزالى فى بيان هذا المعنى ما حاصله : إنَّ للّه صفة يصدر عنها الإبداع والاختراع ويسند إليه الإيجاد والإعدام ، وهذه الصفة أجل وأرفع من أن تدركها عين واضع اللغة فيخصها باسم يدل على كنهها ، فلما أريد إعلام البَشر بها استعير لها من ألسنة المتخاطبين باللغات أقرب الكلمات دلالة عليها أو إشارة إلى عظمة شأنها وأثرها فى الخلق وهى كلمة القُدرة ... انتهى بالمعنى من غير مراجعة الأصل وهو فى كتاب الشكر من «الإحياء» . وما يقال فى القدرة يقال فى العلم والكلام والصوت به الذى هو مقتضى النداء الثابت بالقرآن والمصرَّح به فى الحديث الصحيح خلافاً لمن فرَّق بين هذه الصفات من المتكلمين بتحكم نظريات المذاهب .

مخلوقة . ثم إذا قرأ بأم القرآن وغيرها من كلام الله فالقرآن فى نفسه كلام الله غير مخلوق ، وإن كان حركات العباد وأصواتهم مخلوقة . ولو قال الجُنب : ﴿ الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (١) ينوى به القرآن مُنِعَ من ذلك وكان قرآناً ، ولو قاله ينوى به حمد الله لا يقصد به القراءة لم يكن قارئاً وجاز له ذلك . ومنه قول النبى ﷺ : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلاّ الله ، والله أكبر » (رواه مسلم فى صحيحه) ، فأخبر أنها أفضل الكلام بعد القرآن وقال : هى من القرآن ، فهى من القرآن باعتبار ، وليست من القرآن باعتبار ، ولو قال القائل : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الكِتَابَ ﴾ (٢) ومقصوده القرآن كان قد تكلم بكلام الله ولم تبطل صلاته باتفاق العلماء ، وإن قصد مع ذلك تنبيه غيره لم تبطل صلاته عند جمهور العلماء . ولو قال لرجل اسمه يحيى وبحضرته كتاب : يا يحيى خذ الكتاب ، لكان هذا مخلوقاً لأن لفظ « يحيى » هنا مراد به ذلك الشخص ، وبالكتاب ذلك الكتاب، ليس مراداً به ما أراده الله بقوله : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الكِتَابَ ﴾. والكلام كلام المخلوق بلفظه ومعناه .

• الحكم على الكلام الواحد باعتبار كونه كلام العبد أو كلام الرب :

وقد تنازع الناس فى مسمى الكلام فى الأصل ، فقيل : هو اسم اللفظ الدال على المعنى ، وقيل : المعنى المدلول عليه باللفظ ، وقيل : لكل منهما بطريق الاشتراك اللفظى ، وقيل : بل هو اسم عام لهما جميعاً يتناولهما عند الإطلاق وإن كان مع التقييد يراد به هذا تارة وهذا تارة . هذا قول السلف وأئمة الفقهاء وإن كان هذا القول لا يُعرف فى كثير من الكتب . وهذا كما تنازع الناس فى

---

(١) الفاتحة : ٢ (٢) مريم : ١٢

مسمى الإنسان هل هو الروح فقط أو الجسد فقط ؟ والصحيح أنه اسم للروح والجسد جميعاً ، وإن كان مع القرينة قد يُراد به هذا تارة وهذا تارة . فتنازعهم في مسمى النطق كتنازعهم في مسمى الناطق . فمَن سمى شخصاً محمداً وإبراهيم ، وقال : جاء محمد وجاء إبراهيم ، لم يكن هذا محمد وإبراهيم المذكورين في القرآن . ولو قال : محمد رسول الله ، وإبراهيم خليل الله - يعنى به خاتم الرسل وخليل الرحمن - لكان قد تكلم بمحمد وإبراهيم الذى فى القرآن لكن قد تكلم بالاسم وألفه كلاماً فهو كلامه ، لم يتكلم به فى القرآن العربى الذى تكلم الله به .

ومما يوضح ذلك أن الفقهاء قالوا فى آداب الخلاء : إنه لا يستصحب ما فيه ذكر الله ، واحتجوا بالحديث الذى فى السُنَن : « أن النبى ﷺ كان إذا دخل الخلاء نزع خاتمه » . وكان خاتمه مكتوبا عليه « محمد رسول الله » محمد سطر، رسول سطر ، الله سطر . ولم يمنع أحد من العلماء أن يستصحب ما يكون فيه كلام العباد وحروف الهجاء [1] مثل ورق الحساب الذى يكتب فيه أهل الديوان الحساب . ومثل الأوراق التى يكتب فيها الباعة ما يبيعونه ... ونحو ذلك . وفى السيرة أن النبى ﷺ لما صالح غطفان على نصف تمر المدينة أتاه سعد فقال له : أهذا شىء أمر الله به فسمعاً وطاعة ، أم شىء تفعله لمصلحتنا ؟ فبيَّن له النبى ﷺ أنه لم يفعل ذلك بوحى ، بل فعله باجتهاده ، فقال : « لقد كنا فى الجاهلية وما كانوا يأكلون منها تمرة إلا بقرى أو بشراء ، فلما أعزنا الله بالإسلام يريدون أن يأكلوا تمرنا ؟ لا يأكلون تمرة واحدة » وبصق سعد فى الصحيفة وقطعها فأقره النبى ﷺ على ذلك ولم يقل : هذه حروف ، فلا يجوز إهانتها والبصاق فيها . وأيضاً فقد كرِهَ السَلَف محو القرآن بالرجل ولم يكرهوا محو ما فيه كلام الآدميين .

---

(١) يعنى بالعلماء : الأئمة المجتهدين ، وقد قال بعض فقهاء الحنفية باحترام المكتوب من كلام الناس .

● أصل مسمى الكلام « اللفظ مع المعنى ، أم أحدهما باعتبار الآخر»؟

وأما قول القائل : إنَّ الحروف قديمة ، أو حروف المعجم قديمة ، فإن أراد جنسها فهذا صحيح ، وإن أراد الحرف المعيَّن فقد أخطأ فإن له مبدأ ومنتهى ، وهو مسبوق بغيره ، وما كان كذلك لم يكن إلاَّ محدَثاً .

وأيضاً فلفظ الحروف مجمل ، يُراد بالحروف الحروف المنطوقة المسموعة التى هى مبانى الكلام ، ويُراد بها الحروف المكتوبة ، ويُراد بها الحروف المتخيلة فى النفس ، والصوت لا يكون كلاماً إلا بالحروف باتفاق الناس . وأما الحروف فهل تكون كلاماً بدون الصوت ؟ فيه نزاع . والحرف قد يُراد به الصوت المقطع ، وقد يُراد به نهاية الصوت وحده ، وقد يُراد بالحروف المداد ، وقد يُراد بالحروف شكل المداد ، فالحروف التى تكلَّم الله بها غير مخلوقة ، وإذا كتبت فى المصحف قيل : كلام الله المكتوب فى المصحف غير مخلوق ، وأما نفس أصوات العباد فمخلوقة ، والمداد مخلوق ، وشكل المداد مخلوق ، فالمداد مخلوق بمادته وصورته ، وكلام الله المكتوب بالمداد غير مخلوق . ومن كلام الله الحروف التى تكلَّم الله بها ، فإذا كتبت بالمداد لم تكن مخلوقة وكان المداد مخلوقاً . وأشكال الحروف المكتوبة مما يختلف فيها اصطلاح الأمم .

● البحث فى قدم الحروف وحدوثها والمراد منها وخطوطها :

والخط العربى قد قيل إن مبدأه كان من الأنبار ومنها انتقل إلى مكة وغيرها ، والخط العربى تختلف صورته : العربي القديم فيه تكوف ، وقد اصطلح المتأخرون على تغيير صوره ، وأهل المغرب لهم اصطلاح ثالث حتى فى نقط الحروف وترتيبها . وكلام الله المكتوب بهذه الخطوط كالقرآن العربى هو فى نفسه لا يختلف باختلاف الخطوط التى يُكتب بها .

فإن قيل : فالحرف من حيث هو مخلوق أو غير مخلوق مع قطع النظر عن كونه فى كلام الخالق أو كلام المخلوق ؟ فإن قلتم : هو من حيث هو غير مخلوق ، لزم أن يكون غير مخلوق فى كلام العباد ، وإن قلتم : مخلوق ، لزم أن يكون مخلوقاً فى كلام الله ؟ قيل : قول القائل : بل الحرف من حيث هو هو كقوله: الكلام من حيث هو هو ، والعِلم من حيث هو هو ، والقُدرة من حيث هى هى ، والوجود من حيث هو هو ... ونحو ذلك .

والجواب عن ذلك : أنَّ هذه الأمور وغيرها إذا أُخِذَت مجردة مطلقة غير مقيَّدة ولا مشخَّصة ، لم يكن لها حقيقة فى الخارج عن الأذهان إلا شىء معيَّن ، فليس ثَمَّ وجود إلاَّ وجود الخالق أو وجود المخلوق ، ووجود كل مخلوق مختص به وإن كان اسم الوجود عاماً يتناول ذلك كله ، وكذلك العلم والقدرة اسم عام يتناول أفراد ذلك وليس فى الخارج إلا علم الخالق وعلم المخلوق ، وعلم كل مخلوق مختص به قائم به ، واسم الكلام والحروف يعم كل ما يتناوله لفظ الكلام والحرف، وليس فى الخارج إلا كلام الخالق وكلام المخلوقين . وكلام كل مخلوق مختص به ، واسم الكلام يعم كل ما يتناوله هذا اللَّفظ . وليس فى الخارج إلا الحروف التى تكلم الله بها الموجودة فى كلام الخالق ، والحروف الموجودة فى كلام المخلوقين ، فإذا قيل : إن علم الرب وقدرته وكلامه غير مخلوق ، وحروف كلامه غير مخلوقة . لم يلزم من ذلك أن يكون علم العبد وقدرته وكلامه غير مخلوق ، وحروف كلامه غير مخلوقة .

وأيضاً فلفظ الحرف يتناول الحرف المنطوق والحرف المكتوب ، وإذا قيل : إنَّ الله تكلَّم بالحروف المنطوقة كما تكلم بالقرآن العربى وبقوله : ﴿ آلم - حم - طسم - طس - يس - ق - ن ﴾ ... ونحو ذلك ، فهذا كلامه ، وكلامه غير مخلوق ، وإذا كُتِبَ فى المصاحف كان ما كُتِبَ من كلام الرب غير مخلوق وإن كان المِداد وشكله مخلوقاً .

● التفرقة بين كلام الرب وكلام العبد فى أنفسهما وفى النطق :

وأيضا فإذا قرأ الناس كلام الله فالكلام فى نفسه غير مخلوق إذا كان الله قد تكلم به ، وإذا قرأه المُبَلِّغ لم يخرج عن أن يكون كلام الله ، فإن الكلام كلام مَن قاله مبتدئاً ، أمراً يأمر به أو خبراً يخبره ، ليس هو كلام المبلِّغ له عن غيره إذ ليس على الرسول إلاَّ البلاغ المبين . وإذا قرأه المُبَلِّغ فقد يُشار إليه من حيث هو كلام الله فيقال : هذا كلام الله ، مع قطع النظر عما بلَّغه به العباد من صفاتهم ، وقد يُشار إلى نفس صفة العبد كحركته وحياته ، وقد يُشار إليهما ، فالمشار إليه الأول غير مخلوق ، والمشار إليه الثانى مخلوق ، والمشار إليه الثالث فمنه مخلوق ومنه غير مخلوق ، وما يوجد فى كلام الآدميين من نظير هذا هو نظير صفة العبد لا نظير صفة الرب أبداً ، وإذا قال القائل : القاف فى قوله : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى ﴾ [1] ، كالقاف في قوله : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » - قيل : ما تكلم الله به وسُمِعَ منه لا يماثل صفة المخلوقين ، ولكن إذا بلغنا كلام الله فإنما بلغناه بصفاتنا ، وصفاتنا مخلوقة ، والمخلوق يماثل المخلوق .

● الجهمية المعطلة كاليهود ، والحلولية كالنصارى ، والمسلمون وسط :

وفى هذا جواب للطائفتين لمن قاس صفة المخلوق بصفة الخالق فجعلها غير مخلوقة ، فإن الجهمية المعطلة أشباه اليهود ، والحلولية الممثلة أشباه النصارى دخلوا فى هذا وهذا ، أولئك مثَّلوا الخالق بالمخلوق فوصفوه بالنقائص التى تختص بالمخلوق كالفقر والبخل ، وهؤلاء مثَّلوا المخلوق بالخالق فوصفوه بخصائص الربوبية التى لا تصلح إلاَّ لله ، والمسلمون يصفون الله بما وصف به

---

(١) طه : ١٤

نفسه وبما وصفته به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل يثبتون له ما يستحقه من صفات الكمال ، وينزهونه عن الأكفاء والأمثال ، فلا يعطلون الصفات ولا يمثلونها بصفات المخلوقات ، فإن المعطل يعبد عدماً ، والممثل يعبد صنماً ، واللّه تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (١) .

ومما ينبغى أن يُعرف أن كلام المتكلم فى نفسه واحد ، وإذا بَلّغه المُبَلّغون تختلف ، أصواتهم به ، فإذا أنشد المنشد قول لبيد : « ألا كل شىء ما خلا اللّه باطل » - كان هذا الكلام كلام لبيد لفظه ومعناه مع أن أصوات المنشدين له تختلف،وتلك الأصوات ليست صوت لبيد ، وكذلك مَن روى حديث النبى ﷺ بلفظه كقوله : « إنما الأعمال بالنيّات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » - كان هذا الكلام كلام رسول اللّه ﷺ لفظه ومعناه ، ويقال لمن رواه : أدّى الحديث بلفظه وإن كان صوت المُبَلّغ ليس هو صوت الرسول ، فالقرآن أولى أن يكون كلام اللّه لفظه ومعناه ، وإذا قرأه القُرّاء فإنما يقرؤنه بأصواتهم .

● منع أحمد من قول :« لفظى بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق »:

ولهذا كان الإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السُنّة يقولون : مَن قال : اللّفظ بالقرآن أو - لفظى بالقرآن - مخلوق فهو جهمى ، ومن قال : إنه غير مخلوق فهو مبتدع ، وفى بعض الروايات عنه : مَن قال : لفظى بالقرآن مخلوق- يعنى به القرآن - فهو جهمى ، لأن اللفظ يُراد به مصدر لَفَظَ يلفظ لفظاً، ومسمى هذا فعل العبد وفعل العبد مخلوق ، ويُراد باللفظ القول الذى يلفظ به اللافظ، وذلك كلام اللّه لا كلام القارىء ، فمَن قال : إنه مخلوق - فقد قال : إن اللّه لم يتكلم بهذا

---

(١) الشورى : ١١

القرآن ، وأنَّ هذا الذى يقرؤه المسلمون ليس هو كلام اللّه ، ومعلوم أن هذا مخالف لما علم بالاضطرار من دين الرسول . وأما صوت العبد فهو مخلوق ، وقد صرّح أحمد وغيره بأن الصوت المسموع صوت العبد ، ولم يقل أحمد قط : مَن قال إن صوتى بالقرآن مخلوق فهو جهمى ، وإنما قال : مَن قال لفظى بالقرآن .

والفرق بين لفظ الكلام وصوت المُبَلِّغ له فرق واضح ، فكل مَن بَلَّغَ كلام غيره بلفظ ذلك الرجل فإنما بَلَّغَ لفظ ذلك الغير لا لفظ نفسه ، وهو إنما بَلَّغه بصوت نفسه لا بصوت ذلك الغير ، ونفس اللفظ والتلاوة والقراءة والكتابة .. ونحو ذلك ، لما كان يراد به المصدر الذى هو حركات العباد وما يحدث عنها من أصواتهم وشكل المِداد ، ويُراد به نفس الكلام الذى يقرأه التالى ويتلوه ويلفظ به ويكتبه ، منع أحمد وغيره من إطلاق النفى والإثبات الذى يقتضى جعل صفات اللّه مخلوقة ، أو جعل صفات العباد ومِدادهم غير مخلوق ، وقال أحمد : نقول القرآن كلام اللّه غير مخلوق حيث تصرف - أى حيث تُلِىَ وكُتِبَ وقُرِىءَ - مما هو فى نفس الأمر كلام اللّه فهو كلامه ، وكلامه غير مخلوق ، وما كانَ من صفات العباد وأفعالهم التى يقرؤن ويكتبون بها كلامه كأصواتهم ومِدادهم فهو مخلوق ، ولهذا مَن لم يهتد إلى هذا الفرق يحار ، فإنه معلوم أن القرآن واحد ويقرأه خلق كثير ، والقرآن لا يكثر فى نفسه بكثرة قراءة القُرَّاء ، وإنما يكثر ما يقرؤن به القرآن ، فما يكثر ويحدث فى العباد فهو مخلوق ، والقرآن نفسه لفظه ومعناه الذى تكلم اللّه به ، وسمعه جبريل من اللّه ، وسمعه محمد من جبريل ، وبَلَّغه محمد إلى الناس ، وأنذر به الأمم لقوله تعالى : ﴿ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ (١) قرآن واحد ، وهو كلام اللّه ليس بمخلوق .

● القرآن - نظمه ولفظه ومعناه وحروفه - كلام اللّه غير مخلوق :

وليس هذا من باب ما هو واحد بالنوع متعدد الأعيان ، كالإنسانية الموجودة

---

(١) الأنعام : ١٩

فى زيد وعمرو ، ولا من باب ما يقول الإنسان مثل قول غيره كما قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ (١) ، فإن القرآن لا يقدر أحد أن يأتى بمثله ، كما قال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ والجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٢) ، فالإنس والجن إذا اجتمعوا لم يقدروا أن يأتوا بمثل هذا القرآن مع قدرة كل قارىء على أن يقرأه ويُبَلِّغه . فعُلِمَ أن ما قرأه هو القرآن ليس هو مثل ذلك القرآن ، وأما الحروف الموجودة فى القرآن إذا وُجِدَ نظيرها فى كلام غيره فليس هذا هو ذاك بعينه بل هو نظيره ، وإذا تكلم اللّه باسم من الأسماء كآدم ونوح وإبراهيم ، وتكلم بتلك الحروف والأسماء التى تكلّم اللّه بها فإذا قرئت فى كلامه فقد بَلَّغَ كلامه ، فإذا أنشأ الإنسان لنفسه كلاماً لم يكن عين ما تكلم اللّه به من الحروف والأسماء هو عين ما تكلم به العبد حتى يقال إن هذه الأسماء والحروف الموجودة فى كلام العباد غير مخلوقة ، فإن بعض مَن قال إن الحروف والأسماء غير مخلوقة فى كلام العباد ادعى أن المخلوق إنما هو النظم والتأليف دون المفردات ، وقائل هذا يلزمه أن يكون أيضاً النظم والتأليف غير مخلوق إذا وجد نظيره فى القرآن كقوله : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الكِتَابَ ﴾ (٣) وإن أراد بذلك شخصاً اسمه يحيى وكتاباً بحضرته .

● الجملة أو الجمل قد تكون قرآناً غير مخلوق ، وغير قرآن :

فإن قيل : يحيى هذا والكتاب الحاضر ليس هو يحيى والكتاب المذكور فى القرآن وإن كان اللفظ نظير اللفظ .

قيل : كذلك سائر الأسماء والحروف ، إنما يوجد نظيرها فى كلام العباد لا فى

---

(١) البقرة : ١١٨ (٢) الإسراء : ٨٨ (٣) مريم : ١٢

كلام الله . وقولنا : يوجد نظيرها فى كلام الله تقريب ، أى يوجد فيما نقرأه ونتلوه . فإن الصوت المسموع من لفظ محمد ويحيى وإبراهيم فى القرآن هو مثل الصوت المسموع من ذلك فى غير القرآن ، وكلا الصوتين مخلوق . وأما الصوت الذى يتكلم الله به فلا مثل له لا يماثل صفات المخلوقين ، وكلام الله هو كلامه بنظمه ومعانيه . وذلك الكلام ليس مثل كلام المخلوقين . فإذا قلنا : ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ (١) وقُصِدَ بذلك قراءة القرآن الذى تكلّم الله به، فذلك القرآن تكلم الله بلفظه ومعناه لا يماثل لفظ المخلوقين ومعناهم ، وأما إذا قصدنا به الذكر ابتداءً من غير أن يقصد قراءة كلام الله فإنما نقصد ذكراً ننشئه نحن يقوم معناه بقلوبنا ، وننطق بلفظه بألسنتنا، وما أنشأناه من الذكر فليس هو من القرآن وإن كان نظيره فى القرآن . ولهذا قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح: « أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن : سبحان الله، والحمد لله ، ولا إله إلاّ الله ، والله أكبر » ، فجعل النبى ﷺ هذه الكلمات أفضل الكلام بعد القرآن ، فجعل درجتها دون درجة القرآن ، وهذا يقتضى أنها ليست من القرآن . ثم قال : « هى من القرآن » وكلاً قوليه حق وصواب . ولهذا منع أحمد أن يقال : الإيمان مخلوق . وقال : لا إله إلاّ الله من القرآن . وهذا الكلام لا يجوز أن يُقال إنه مخلوق وإن لم يكن من القرآن ، ولا يقال فى التوراة والإنجيل أنهما مخلوقان ، ولا يقال فى الأحاديث الإلهية التى يرويها عن ربه أنها مخلوقة كقوله : « يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرَّماً فلا تظالموا » ، فكلام الله قد يكون قرآناً وقد لا يكون قرآناً ، والصلاة إنما تجوز وتصح بالقرآن . وكلام الله كله غير مخلوق.

فإذا فُهِمَ هذا - فى مثل هذا - فليُفهم فى نظائره ، وأنَّ ما يوجد من الحروف

---

(١) الفاتحة : ٢

والأسماء فى كلام اللّه ويوجد فى غير كلام اللّه يجوز أن يقال إنه من كلام اللّه باعتبار كما أنه يكون من القرآن باعتبار وغير القرآن باعتبار ، لكن كلام اللّه -القرآن وغير القرآن - غير مخلوق ، وكلام المخلوقين كله مخلوق . فما كان من كلام اللّه فهو غير مخلوق ، وما كان من كلام غيره فهو مخلوق .

• شُبهة مَن قال : « كلام اللّه مخلوق » ومن قال : « كلام الناس غير مخلوق » :

وهؤلاء الذين يحتجون على نفى الخلق أو إثبات القِدَم بشىء من صفات العباد وأعمالهم لوجود نظير ذلك فيما يُضاف إلى اللّه وكلامه والإيمان به ، شاركهم فى هذا الأصل الفاسد من احتج على خلق ما هو من كلام اللّه وصفاته بأن ذلك قد يوجد نظيره فيما يُضاف إلى العبد . مثال ذلك أن القرآن الذى يقرؤه المسلمون هو كلام اللّه قرأوه بحركاتهم وأصواتهم ، فقال الجهمى : أصوات العباد ومدادهم مخلوقة وهذا هو المسمى بكلام اللّه أو يوجد نظيره فى المسمى بكلام اللّه ، فيكون كلام اللّه مخلوقاً .

وقال الحلوانى الاتحادى الذى يجعل صفة الخالق هى عين صفة المخلوق : الذى نسمعه من القُرّاء هو كلام اللّه ، وإنما نسمع أصوات العباد ، فأصوات العباد بالقرآن كلام اللّه وكلام اللّه غير مخلوق ، فأصوات العباد بالقرآن غير مخلوقة ، والحروف المسموعة منهم غير مخلوقة ، ثم قالوا : الحروف الموجودة فى كلامهم هى هذه أو مثل هذه فتكون غير مخلوقة . وزاد بعض غلاتهم فجعل أصوات كلامهم غير مخلوقة ، كما زعم بعضهم أن الأعمال من الإيمان وهو غير مخلوق والأعمال غير مخلوقة . وزاد بعضهم أعمال الخير والشر وقال : هى القدر والشرع المشروع ، وقال عمر : ما مرادنا بالأعمال الحركات بل الثواب الذى يأتى يوم القيامة كما ورد فى الحديث الصحيح : « إنه تأتى البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف » ، فيقال له :

وهذا الثواب مخلوق . وقد نص أحمد وغيره من الأئمة على أنه غير مخلوق . وبذلك أجابوا مَن احتج على خلق القرآن بمثل هذا الحديث فقالوا له : الذى يجىء يوم القيامة هو ثواب القرآن لا نفس القرآن ، وثواب القرآن مخلوق ... إلى أمثال هذه الأقوال التى ابتدعها طوائف ، والبدع تنشأ شيئاً فشيئاً وقد بُسِطَ الكلام فى هذا الباب فى مواضع أُخر .

● إمامة أحمد المتفق عليها عند أهل السُنَّة بعد الفتنة :

وقد بيَّنا أن الصواب فى هذا الباب هو الذى دلَّ عليه الكتاب والسُنَّة وإجماع السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان ، وهو ما كان عليه الإمام أحمد بن حنبل ومَن قبله من أئمة الإسلام ومَن وافق هؤلاء ، فإن قول الإمام أحمد وقول الأئمة قبله هو القول الذى جاء به الرسول ودَلَّ عليه الكتاب والسُنَّة . ولكن لما امتُحِنَ الناس بمحنة الجهمية وطُلِبَ منهم تعطيل الصفات وأن يقولوا بأن القرآن مخلوق وأن الله لا يُرَى فى الآخرة ... ونحو ذلك ، ثبَّت الله الإمام أحمد فى تلك المحنة فدفع حجج المعارضين النفاة وأظهر دلالة الكتاب والسُنَّة ، وأن السَلَف كانوا على الإثبات ، فآتاه الله من الصبر واليقين ما صار به إماماً كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) ، ولهذا قيل فيه رحمه الله : عن الدنيا ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه . أتته البدع فنفاها ، والدنيا فأباها ، فلما ظهر به من السُنَّة ما ظهر كان له من الكلام فى بيانها وإظهارها أكثر وأعظم مما لغيره ، فصار أهل السُنَّة من عامة الطوائف يعظمونه وينتسبون إليه .

وقد ذكرتُ كلامه وكلام غيره من الأئمة ونصوص الكتاب والسُنَّة فى هذه الأبواب فى غير هذا الموضع ، وبيَّنا أنَّ كل ما يدل عليه الكتاب والسُنَّة فإنه

---

(١) السجدة : ٢٤

موافق لصريح المعقول ، وأن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح ، ولكن كثيراً من الناس يغلطون إما فى هذا وإما فى هذا ، فمَن عرف قول الرسول ومراده به كان عارفاً بالأدلة الشرعية ، وليس فى المعقول ما يخالف المنقول ، ولهذا كان أئمة السُنَّة على ما قاله أحمد بن حنبل ، قال : معرفة الحديث والفقه فيه أحب إلىَّ من حفظه ، أى معرفته بالتمييز بين صحيحه وسقيمه ، والفقه فيه معرفة مراد الرسول وتنزيله على المسائل الأُصولية والفروعية أحبُّ إلىَّ من أن تحفظ من غير معرفة وفقه . وهكذا قال على بن المدينى وغيره من العلماء ، فإنه مَن احتج بلفظ ليس بثابت عن الرسول - أو بلفظ ثابت عن الرسول - وحمله على ما لم يدل عليه فإنما أُتِىَ من نفسه .

• حجج النقل والعقل الصحيحة ، وحجج الملاحدة والمبتدعة الداحضة :

وكذلك العقليات الصريحة إذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحاً لم تكن إلا حقاً لا تناقض شيئاً مما قاله الرسول ، والقرآن قد دَلَّ على الأدلة العقلية التى بها يُعرف الصانع وتوحيده وصفاته وصدق رسله ، وبها يُعرف إمكان المعاد . ففى القرآن من بيان أُصول الدين التى تُعلم مقدماتها بالعقل الصريح ما لا يوجد مثله فى كلام أحد من الناس ، بل عامة ما يأتى به حُذَّاق النُظَّار من الأدلة العقلية يأتى القرآن بخلاصتها وبما هو أحسن منها ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلا جِئْنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَذَا القُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) الفرقان : ٣٣ (٢) الكهف : ٥٤ (٣) الحشر : ٢١

وأما الحجج الداحضة التى يحتج بها الملاحدة وحجج الجهمية معطلة الصفات وحجج الدهرية وأمثالها - كما يوجد مثل ذلك فى كلام المتأخرين الذين يصنعون فى الكلام المبتدع وأقوال المتفلسفة ويدّعون أنها عقليات - ففيها من الجهل والتناقض والفساد ، ما لا يحصيه إلاّ رب العباد ، وقد بُسِطَ الكلام على هؤلاء فى مواضع أُخر .

وكان من أسباب ضلال هؤلاء تقصير الطائفتين أو قصورهم عن معرفة ما جاء به الرسول وما كان عليه السَلَف ومعرفة المعقول الصريح ، فإن هذا هو الكتاب وهذا هو الميزان وقد قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ والمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١) .. وهذه المسألة لا تحتمل البسط على هذه الأمور إذا كان المقصود هنا التنبيه على أن هؤلاء المتنازعين أجمعوا على أصل فاسد ، ثم تفرّقوا فأجمعوا على أن جعلوا عين صفة الرب الخالق هى عين صفة المخلوق . ثم قال هؤلاء : وصفة المخلوق مخلوقة فصفة الرب مخلوقة ، فقال هؤلاء : صفة الرب قديمة فصفة المخلوق قديمة ، ثم احتاج كل منهما إلى طرد أصله فخرجوا إلى أقوال ظاهرة الفساد ، خرج النُفاة إلى أن اللّه لم يتكلم بالقرآن ولا شىء من الكتب الإلٰهية ولا التوراة ولا الإنجيل ولا غيرهما ، وأنه لم يناد موسى بنفسه نداءً يسمعه منه موسى ، ولا تكلم بالقرآن العربى ولا التوراة العبرية ، وخرج هؤلاء إلى أن ما يقوم بالعباد ويتصفون به يكون قديماً أزلياً ، وأن ما يقوم بهم ويتصفون به لا يكون قائماً بهم حالاً فيهم ، بل يكون ظاهراً فيهم من غير قيام بهم.

---

(١) الحديد : ٢٥

● قول بعض الحنابلة :« الحروف قســـمان قديم ومخلوق » ورده الأكثرون :

ولما تكلموا فى حروف المعجم صاروا بين قولين : طائفة فرّقت بين المتماثلين فقالت : الحرف حرفان هذا قديم وهذا مخلوق ، كما قال ابن حامد والقاضى أبو يعلى وابن عقيل وغيرهم ، فأنكر ذلك عليهم الأكثرون وقالوا : هذا مخالفة للحس والعقل ، فإن حقيقة هذا الحرف هى حقيقة هذا الحرف ، وقالوا : الحرف حرف واحد . وصنّف فى ذلك القاضى يعقوب البرزينى مصنفاً خالف به شيخه القاضى أبا يعلى مع قوله فى مصنفه : وينبغى أن يُعلم أنّ ما سطرته فى هذه المسألة أن ذلك مما استفدته وتفرّع عندى من شيخنا وإمامنا القاضى أبى يعلى بن الفرّاء ، وإن كان قد نصر خلاف ما ذكرته فى هذا الباب ، فهو العالِم المُقتدَى به فى علمه ودينه ، فإنى ما رأيت أحسن سمتاً منه ، ولا أكثر اجتهاداً منه ، ولا تشاغلاً بالعلم ، مع كثرة العلم والصيانة ، والانقطاع عن الناس والزهادة فيما بأيديهم ، والقناعة فى الدنيا باليسير ، مع حسن التجمل ، وعظم حشمته عند الخاص والعام ، ولم يعدل بهذه الأخلاق شيئاً من نفر من الدنيا .

● اختلاف أفهامهم فى كلام أحمد فى المسألة :

وذكر القاضى يعقوب فى مصنفه أن ما قاله قول أبى بكر أحمد بن المسيب الطبرى وحكاه عن جماعة من أفضل أهل طبرستان ، وأنه سمع الفقيه عبد الوهاب بن حلبه قاضى حرّان يقول : هو مذهب العلوى الحرانى وجماعة من أهل حرّان . وذكره أبو عبد الله بن حامد عن جماعة من أهل طبرستان ممن ينتمى إلى مذهبنا كأبى محمد الكشفل وإسماعيل الكاوذرى فى خلق من أتباعهم يقولون إنها قديمة ، قال القاضى أبو يعلى : وكذلك حُكِىَ لى عن طائفة بالشام أنها تذهب إلى ذلك منهم النابلسى وغيره ، وذكر القاضى حسين أن أباه رجع فى آخر عمره إلى هذا . وذكروه عن الشريف أبى على بن أبى موسى وتبعهم

فى ذلك الشيخ أبو الفرج المقدسى وابنه عبد الوهاب وسائر أتباعه وأبو الحسن ابن الزاغونى وأمثاله . وذكر القاضى يعقوب أن كلام أحمد يحتمل القولين ، وهؤلاء تعلقوا بقول أحمد لما قيل له إنَّ سرياً السقطى قال : لما خلق اللّه الأحرف سجدت له إلا الألف فقالت : لا أسجد حتى أُومر . فقال أحمد : هذا كفر . وهؤلاء تعلقوا من قول أحمد بقوله : كل شىء من المخلوقين على لسان المخلوقين فهو مخلوق ، وبقوله : لو كان كذلك لما تمت صلاته بالقرآن كما لا تتم بغيره من كلام الناس . وبقول أحمد لأحمد بن الحسن الترمذى : ألستَ مخلوقاً ؟ قال : بلى ، قال : أليس كل شىء منك مخلوقاً ؟ قال : بلى ، قال : فكلامك منك وهو مخلوق .

قلت : الذى قاله أحمد فى هذا الباب صواب يصدق بعضه بعضاً ، وليس فى كلامه تناقض ، وهو أنكر على مَن قال إنَّ اللّه خلق الحروف ، فإن مَن قال إنَّ الحروف مخلوقة كان مضمون قوله إن اللّه لم يتكلم بقرآن عربى ، وإن القرآن العربى مخلوق ، ونص أحمد أيضاً على أن كلام الآدميين مخلوق ، ولم يجعل شيئاً منه غير مخلوق ، وكل هذا صحيح ، والسرى رحمه اللّه إنما ذكر ذلك عن بكر بن خنيس العابد ، فكان مقصودهما بذلك أن الذى لا يعبد اللّه إلاَّ بأمره ، هو أكمل ممن يعبده برأيه من غير أمر من اللّه ، واستشهدا على ذلك بما بلغهما أنه لما خلق اللّه الحروف سجدت له إلاَّ الألف فقالت : لا أسجد حتى أومر ، وهذا الأثر لا يقوم بمثله حُجَّة فى شىء ، ولكن مقصودهما ضرب المثل أن الألف منتصبة فى الخط ليس هى مضطجعة كالباء والتاء ، فمن لم يفعل حتى يؤمر أكمل ممن فعل بغير أمر .

• نصوص أحمد فى الكلام وأشهر مَن نقلها من أصحابه وأصحابهم :

وأحمد أنكر قول القائل : « إنَّ اللّه لما خلق الحروف ... » ، ورُوِىَ عنه أنه

قال : مَن قال إن حرفاً من حروف المعجم مخلوق فهو جهمى ، لأنه سلك طريقاً إلى البدعة ، ومَن قال إن ذلك مخلوق فقد قال إنَّ القرآن مخلوق . وأحمد قد صرَّح هو وغيره من الأئمة أنَّ اللّه لم يزل متكلماً إذا شاء ، وصرَّح أنَّ اللّه يتكلم بمشيئته ، ولكن أتباع ابن كلاب - كالقاضى وغيره - تأوَّلوا كلامه على أنه أراد بذلك - إذا شاء - الإسماع لأنه عندهم لم يتكلم بمشيئته وقُدرته .

وصرَّح أحمد وغيره من السَلَف أن القرآن كلام اللّه غير مخلوق . ولم يقل أحد من السَلَف أن اللّه تكلم بغير مشيئته وقدرته ، ولا قال أحد منهم أن نفس الكلام المعيَّن كالقرآن أو ندائه لموسى - أو غير ذلك من كلامه المعيَّن - أنه قديم أزلى لم يزل ولا يزال ، وأن اللّه قامت به حروف معيَّنة أو حروف وأصوات معيَّنة قديمة أزلية لم تزل ولا تزال ، فإن هذا لم يقله ولا دَلّ عليه قول أحمد ولا غيره من أئمة المسلمين ، بل كلام أحمد وغيره من الأئمة صريح فى نقيض هذا ، وأن اللّه يتكلم بمشيئته وقُدرته ، وأنه لم يزل يتكلم إذا شاء ، مع قولهم إن كلام اللّه غير مخلوق ، وأنه منه بدا ليس بمخلوق ابتدأ من غيره ، ونصوصهم بذلك كثيرة معروفة فى الكتب الثابتة عنهم ، مثل ما صنف أبو بكر الخلال فى كتاب السُنَّة وغيره ، وما صنَّفه عبد الرحمن بن أبى حاتم من كلام أحمد وغيره ، وما صنَّفه أصحابه وأصحاب أصحابه كابنيه صالح وعبد اللّه ، وحنبل ، وأبى داود السجستانى صاحب السُنَن ، والأثرم ، والمروذى ، وأبى زرعة ، وأبى حاتم ، والبخارى صاحب الصحيح ، وعثمان بن سعيد الدارمى ، وإبراهيم الحربى ، وعبد الوهاب الوراق ، وعباس بن عبد العظيم العنبرى ، وحرب بن إسماعيل الكرمانى ، ومَن لا يُحصى عدده من أكابر أهل العلم والدين ، وأصحاب أصحابه ممن جمع كلامه واختاره كعبد الرحمن بن أبى حاتم وأبى بكر الخلال ، وأبى الحسن البنانى الأصبهانى وأمثال هؤلاء ، ومن كان أيضاً يأتم به وبأمثاله من الأئمة فى الأصول والفروع كأبى عيسى الترمذى صاحب الجامع

وأبى عبد الرحمن النسائى وأمثالهما ، ومثل أبى محمد بن قتيبة وأمثاله ، وبَسْطُ هذا له موضع آخر ، وقد ذكرنا فى المسائل الطبرستانية والكيلانية بسط مذاهب الناس وكيف تشعبت وتفرعت فى هذا الأصل .

● مَن يعظمون السَلَف والأئمة ويجهلون كلامهم فيخالفونه :

والمقصود هنا أنَّ كثيراً من الناس المتأخرين لم يعرفوا حقيقة كلام السَلَف والأئمة ، فمنهم من يعظمهم ويقول إنه متبع لهم مع أنه مخالف لهم من حيث لا يشعر ، ومنهم مَن يظن أنهم كانوا لا يعرفون أُصول الدين ولا تقريرها بالدلائل البرهانية ، وذلك لجهله بعلمهم بل لجهله بما جاء به الرسول من الحق الذى تدل عليه الدلائل العقلية مع السمعية ، فلهذا يوجد كثير من المتأخرين يشتركون فى أصل فاسد ، ثم يُفَرِّع كل قوم عليه فروعاً فاسدة يلتزمونها ، كما صرَّحوا فى تكلم اللّه تعالى بالقرآن العربى وبالتوراة العبرية وما فيهما من حروف الهجاء مؤلَّفاً أو مفرداً لما رأوا أن ذلك بُلِّغَ بصفات المخلوقين اشتبه بصفات المخلوقين ، فلم يهتدوا لموضع الجمع والفرق ، فقال هؤلاء : هذا الذى يُقرأ ويُسمع مثل كلام المخلوقين فهو مخلوق ، وقال هؤلاء : هذا الذى من كلام الآدميين هو مثل كلام اللّه فيكون غير مخلوق ، كما ذكر ابن عقيل فى كتاب الإرشاد عن بعض القائلين بأن القرآن مخلوق ، فهو شبهة اعترض بها على بعض أئمتهم فقال : أقل ما فى القرآن من أمارات الحدَث كونه مشبهاً لكلامنا ، والقديم لا يشبه المحدَث ، ومعلوم أنه لا يمكن دفع ذلك ، لأن قول القائل لغلامه يحيى : « يا يحيى خذ الكتاب بقوّة » ، يضاهى قوله سبحانه ، حتى لا يميز السامع بينهما من حيث حسه ، إلاَّ أن يخبره أحدهما بقصده والآخر بقصده ، فيميِّز بينهما بخبر القائل لا بحسه ، وإذا اشتبها إلى هذا الحد فكيف يجوز دعوى قدم ما يشابه المحدث ويسد مسده ، مع أنه إن جاز دعوى قِدَم الكلام مع

كونه مشاهداً للمحدَث جاز دعوى التشبيه بظواهر الآى والأخبار ، ولا مانع من ذلك ، فلما فزعنا نحن وأنتم إلى نفى التشبيه خوفاً من جواب دخول القرآن بالحدَث علينا ، كذلك يجب أن تفزعوا من القول بالقدم مع وجود الشبه ، حتى إن بعض أصحابكم يقول - لقوة ما رأى من الشبه بينهما - أن الكلام واحد والحروف غير مخلوقة ، فكيف يجوز أن يقال فى الشىء الواحد إنه قديم محدَث.

• الشُبهات على قِدَم الحروف بكلام اللّه وصفاته وأسمائه :

قلت : وهذا الذى حكى عنه ابن عقيل من بعض الأصحاب المذكورين منهم القاضى يعقوب البرزينى ذكره فى مصنفه فقال : « دليل عاشر - وهو أنَّ هذه الحروف بعينها وصفتها ومعناها وفائدتها هى التى فى كتاب اللّه تعالى وفى أسمائه وصفاته والكتاب بحروفه قديم . وكذلك ههنا . قال : فإن قيل : لا نُسَلِّم أن تلك لها حُرمة وهذه لا حُرمة لها ، قيل : لا نُسَلِّم ، بل لها حُرمة .

فإن قيل : لو كان لها حُرمة لوجب أن تُمنع الحائض والنفساء من مسها وقراءتها ، قيل : قد لا تُمنع من قراءتها ومسها ويكون لها حُرمة كبعض آية لا تُمنع من قراءتها ولها حُرمة وهى قديمة ، وإنما لم تُمنع قراءتها ومسها للحاجة إلى تعليمها ، كما يقال فى الصبى : يجوز له مس المصحف على غير طهارة للحاجة إلى تعليمه .

فإن قيل : فيجب إذا حلف بها حالف أن ينعقد يمينه وإذا خالف يمينه أن يحنث ، قيل له : كما فى حروف القرآن مثله نقول هنا .

فإن قيل : أليس إذا وافقها فى هذه المعانى دلّ على أنها هى ، ألا ترى أنه إذا تكلم متكلم بكلمة يقصد بها خطاب آدمى فوافق صفتها صفة ما فى كتاب اللّه تعالى مثل قوله : يا داود ، يا نوح ، يا يحيى ... وغير ذلك ، فإنه موافق لهذه الأسماء التى فى كتاب اللّه وإن كانت فى كتاب اللّه قديمة وفى

خطاب الآدمى محدَثة ؟ قيل : كل ما كان موافقاً لكتاب الله من الكلام فى لفظه ونظمه وحروفه فهو من كتاب الله وإن قُصِدَ به خطاب آدمى .

فإن قيل : فيجب إذا أراد بهذه الأسماء آدمياً وهو فى الصلاة أن لا تبطل صلاته ، قيل له : كذلك نقول ، قد ورد مثل ذلك عن علىّ وغيره إذ ناداه رجل من الخوارج : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (١) ، قال : فأجابه علىّ وهو فى الصلاة : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٢) ، وعن ابن مسعود أنه استأذن عليه بعض أصحابه فقال : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ (٣) .

قال : فإن قيل : أليس إذا قال : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ (٤) ونوى به خطاب غلام اسمه يحيى يكون الخطاب مخلوقاً ؟ وإن نوى به القرآن يكون قديماً ، قيل له : في كِلا الحالين يكون قديماً لأن القديم عبارة عما كان موجوداً فيما لم يزل ، والمحدَث عبارة عما حدث بعد أن لم يكن ، والنية لا تجعل المحدَث قديماً ولا القديم محدَثاً ، قال : ومَن قال هذا فقد بالغ فى الجهل والخطأ .

وقال أيضاً : كل شىء يُشَبَّه بشىء ما فإنما يشبهه فى بعض الأشياء دون بعض ، ولا يشبهه من جميع أحواله لأنه إذا كان مثله فى جميع أحواله كان هو لا غيره ، وقد بيَّنا أن هذه الحروف تشبه حروف القرآن فهى غيرها ..»ا. هـ.

قلت : هذا كلام القاضى يعقوب وأمثاله مع أنه أجَلُّ مَن تكلم فى هذه المسألة ، ولما كان جوابه مشتملاً على ما يخالف النص والإجماع والعقل خالفه ابن عقيل وغيره من أئمة المذهب الذين هم أعلم به .

---

(١) الزمر : ٦٥ (٢) الروم : ٦٠

(٣) يوسف : ٩٩ (٤) مريم : ١٢

• أجوبة ابن عقيل عن شُبهات القاضى يعقوب وكِلاهما من الحنابلة :

وأجاب ابن عقيل عن سؤال الذين قالوا : هذا مثل هذا ، بأن قال : الاشتراك فى الحقيقة لا يدل على الاشتراك في الحدوث ، كما أنَّ كونه عالماً هو تبيِّنه للشىء على أصلكم ، ومعرفته به على قولنا على الوجه الذى يبينُه الواحد منا ، وليس مماثلاً لنا فى كوننا عالمين . وكذلك كونه قادراً هو صحة الفعل منه سبحانه وتعالى ، وليس قدرته على الوجه الذى قدرنا عليها ، فليس الاشتراك فى الحقيقة حاصلاً ، والافتراق فى القِدَم والحدوث حاصل .

قال : وجواب آخر ، لا نقول إن اللّه يتكلم بكلامه على الوجه الذى يتكلم به زيد ، بمعنى أنه يقول : يا يحيى ، فإذا فرغ من ذلك انتقل إلى قوله : خذ الكتاب بقوَّة ، وترتب فى الوجود كذلك ، بل هو سبحانه وتعالى يتكلم به على وجه تعجز عن مثله أدواتنا . فما ذكرته من الاشتباه من قول القائل : « يا يحيى خذ الكتاب » يعود إلى اشتباه التلاوة بالكلام المحدَث . فأما أنه شابه الكلام القائم بذاته فلا.

قال ابن عقيل :« قالوا : فهذا لا يجىء على مذهبكم . فإنَّ عندكم التلاوة هى المتلو والقراءة هى المقروء . قيل : ليس معنى قولنا « هى المتلو » أنها هذه الأصوات المقطعة ، وإنما نريد به ما يظهر من الحروف القديمة فى الأصوات المحدَثة ، وظهورها فى المحدَث لا بد أن يكسبها صفة التقطيع لاختلاف الأنفاس وإدارة اللهوات ، لأن الآلة التى تظهر عليها لا تحمل الكلام إلاَّ على وجه التقطيع ، وكلام البارى قائم بذاته على خلاف هذا التقطيع والابتداء والانتهاء والتكرار والبَعْدية والقَبْلية . ومَن قال ذلك لم يعرف حد القديم وادعى قِدَم الأعراض وتقطع القديم ، وتقطع القديم عَرَض لا يقوم بقديم . ومَن اعتقد أنَّ كلام اللّه القائم بذاته على حد تلاوة التالى من القطع والوصل والتقريب والتبعيد

والبَعْدية والقَبْلية فقد شبَّه الله بخلقه . ولهذا رُوِىَ فى الخبر أنَّ موسى سأله بنو إسرائيل : كيف سمعتَ كلام ربك ؟ قال : كالرعد الذى لا يترجع ، يعنى ينقطع لعدم قطع الأنفاس وعدم الأنفاس والآلات والشفاه واللُّهوات ، ومن قال غير ذلك وتوَّهم أنَّ الله تكلم على لسان التالى أو الكلام الذى قام بذاته على هذه الصفة من التقطيع والوصل والتقريب والتبعيد فقد حكم به مُحدَثاً لأن الدلالة على حدوث العالَم هو الاجتماع والافتراق ، ولأن هذه من صفات الأدوات ...» ا . هـ .

● فصل شيخ الإسلام فى الخلاف :

قلت : فهذا الذى قاله ابن عقيل أقل خطأً مما قاله البرزينى ، فإنَّ ذلك مخالف للنص والإجماع والعقل مخالفة ظاهرة ، فإنه قد ثبت بالنص والإجماع أن مَن تكلم فى الصلاة بكلام الآدميين عامداً لغير مصلحتها عالماً بالتحريم بطلت صلاته بالإجماع خلاف ما ذكره القاضى يعقوب . ومتى قصد به التلاوة لم تبطل بالإجماع ، وإن قصد به التلاوة والخطاب ففيه نزاع . وظاهر مذهب أحمد لا تبطل كمذهب الشافعى وغيره ، وقيل : تبطل كقول أبى حنيفة وغيره. ما ذكروه عن الصحابة حُجَّة عليهم . فإنَّ قول علىٍّ بن أبى طالب: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾ (١) هو كلام الله ولم يقصد علىٌ أن يقول للخارجى : ولا يستخفنك الخوارج ، وإنما قصد أن يُسمعه الآية وأنه عامل بها صابر لا يستخفه الذين لا يوقنون ، وابن مسعود قال لهم وهو بالكوفة : ﴿ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ (٢) ، ومعلوم أن مصر بلا تنوين هى مصر المدينة وهذه لم تكن بالكوفة . وابن مسعود إنما كان بالكوفة فَعُلِمَ أنه قصد تلاوة الآية ، وقصد مع ذلك تنبيه الحاضرين على الدخول فإنهم

---

(١) الروم : ٦٠ (٢) يوسف : ٩٩

سمعوا قوله : ادخلوا ، فعلموا أنه أُذِنَ لهم فى الدخول ، وإن كان هو تلا الآية فهذا هذا .

• تخطئة لابن عقيل فيما وافق فيه ابن كلاب كالأشعرى :

وأما جواب ابن عقيل فبناه على أصل ابن كلاب الذى يعتقده هو وشيخه وغيرهما ، وهو الأصل الذى وافقوا فيه ابن كلاب ومن اتبعه كالأشعرى وغيره ، وهو أنَّ اللّه لا يتكلم بمشيئته وقُدرته ، وأنه ليس فيما يقوم به شىء يكون بمشيئته وقُدرته لامتناع قيام الأمور الاختيارية به عندهم لأنها حادثة ، واللّه لا يقوم به حادث عندهم ، ولهذا تأوّلوا النصوص المناقضة لهذا الأصل، كقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾[1] فإنَّ هذا يقتضى أنه سيرى الأعمال فى المستقبل ، وكذلك قوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِى الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾[3] ، وكذلك قوله : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾[4] فإن هذا يقتضى أنه يحبهم بعد اتباع الرسول . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ ﴾[5] فإن هذا يقتضى أنه قال لهم بعد خلق آدم، وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ ﴾[6] يقتضى أنه نودى لما أتاها ، لم يناد قبل ذلك ، وكذلك قوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[7] ... ومثل هذا فى القرآن كثير .

---

(١) التوبة : ١٠٥ (٢) يونس : ١٤ (٣) التوبة : ١٠٥
(٤) آل عمران : ٣١ (٥) الأعراف : ١١ (٦) طه : ١١
(٧) يس : ٨٢

وهذا الأصل هو مما أنكره الإمام أحمد على ابن كلاب وأصحابه حتى على الحارث المحاسبى مع جلالة قدر الحارث ، وأمر أحمد بهجره وهجر الكلابية ، وقال : احذروا من حارث ، الآفة كلها من حارث ، فمات الحارث وما صَلّى عليه إلاّ نفر قليل بسبب تحذير الإمام أحمد عنه ، مع أن فيه من العلم والدين ما هو أفضل من عامة مَن وافق ابن كلاب على هذا الأصل ، وقد قيل إنّ الحارث رجع عن ذلك وأقَرّ بأنّ اللّه يتكلم بصوت كما حكى عنه ذلك صاحب « التعرف لمذهب التصوف » - أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذى .

وكثير من المتأخرين من أصحاب مالك والشافعى وأحمد وأبى حنيفة وافقوا ابن كلاب على هذا الأصل ، كما قد بُسِطَ الكلام على ذلك فى مواضع أُخر .

واختلف كلام ابن عقيل فى هذا الأصل ، فتارة يقول بقول ابن كلاب ، وتارة يقول بمذهب السَلَف وأهل الحديث : أنّ اللّه تقوم به الأمور الاختيارية ، ويقول: إنه قام به أبصار متجددة حين تجدد المرئيات لم تكن قبل ذلك ، وقام به علم بأن كل شىء وُجِدَ غير العلم الذى كان أولاً أنه سيوجد ، كما دَلّ على ذلك عدة آيات فى القرآن كقوله تعالى : ﴿ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ ﴾ [1] ... وغير ذلك وكلامه فى هذا الأصل وغيره يختلف ، تارة يقول هذا وتارة يقول هذا ، فإنّ هذه المواضع مواضع مشكلة كثر فيها غلط الناس لما فيها من الاشتباه والالتباس .

● الجواب الحق التفصيلى فى كلام الخالق وكلام المخلوق :

والجواب الحق أنّ كلام اللّه لا يماثل كلام المخلوقين ، كما لا يماثل فى شىء من صفاته صفات المخلوقين ، وقول القائل : إن الاشتراك فى الحقيقة لا يدل على الاشتراك فى الحدوث لفظ مجمل ، فإنّا إذا قلنا : للّه عِلمٌ ولنا عِلم ، أو له قدرة ولنا قدرة ، أو له كلام ولنا كلام ، أو تكلم بصوت ونحن نتكلم

---

(١) البقرة : ١٤٣

بصوت ، وقلنا : صفة الخالق وصفة المخلوق اشتركتا فى الحقيقة ، - فإن أُريد بذلك أن حقيقتهما واحدة بالعين فهذا مخالف للحس والعقل والشرع ، وإن أُريد بذلك أنَّ هذه مماثلة لهذه فى الحقيقة وإنما اختلفتا فى الصفات العرضية ، كما قال ذلك طائفة من أهل الكلام - وقد بيَّن فساد ذلك فى الكلام على الأربعين للرازى وغير ذلك - فهذا أيضاً من أبطل الباطل ، وذلك يستلزم أن تكون حقيقة ذات البارى عَزَّ وجَلَّ مماثلة لحقيقة ذوات المخلوقين .

• كلام الخالق وكلام المخلوق مشتركان فى التسمية لا فى الحقيقة :

وإن أريد بذلك أنهما اشتركا فى مسمى العلم والقُدرة والكلام فهذا صحيح ، كما أنه إذا قيل إنه موجود أو إن له ذاتاً فقد اشتركا فى مسمى الوجود والذات ، لكن هذا المشترك أمر كلى لا يوجد كلياً إلاَّ فى الأذهان لا فى الأعيان [1] ، فليس فى الخارج شىء اشترك فيه مخلوقان كاشتراك الجزئيات فى كلياتها بخلاف اشتراك الأجزاء فى الكل ، فإنه يجب الفرق بين قسمة الكلى إلى جزئياته ، كقسمة الحيوان إلى ناطق وغير ناطق ، وقسمة الإنسان إلى مسلم وكافر ، وقسمة الاسم إلى معرب ومبنى ، وقسمة الكل إلى أجزائه كقسمة العقار بين الشركاء ، وقسمة الكلام إلى اسم وفعل وحرف ، ففى الأول إنما اشتركت الأقسام فى أمر كلى فضلاً عن أن يكون الخالق والمخلوقون مشتركين فى شىء موجود فى الخارج ، وليس فى الخارج صفة للّه يماثل بها صفة المخلوق ، بل كل ما يوصف به الرب تعالى فهو مخالف بالحد والحقيقة لما يوصف به المخلوق أعظم مما يخالف المخلوق المخلوق ، وإذا كان المخلوق مخالفاً

---

(١) يظهر من هذا التفصيل أن شيخ الإسلام يُرجِّحُ أن الاشتراك بين صفات اللّه وصفات المخلوق اشتراك فى التسمية لا فى الجنس الذى ينقسم إلى أنواع هى جزئياته . وهذا هو الذى اختاره شيخنا فى درسه لرسالة التوحيد وذكرناه فى حاشية لها وأشرنا إليه فى حاشية سابقة على هذا الكتاب .

بذاته وصفاته لبعض المخلوقات فى الحد والحقيقة ، فمخالفة الخالق لكل مخلوق فى الحقيقة أعظم من مخالفة أى مخلوق فرض لأى مخلوق فرض ، ولكن علمه ثبت له حقيقة العلم ولقدرته حقيقة القدرة ولكلامه حقيقة الكلام كما ثبت لذاته حقيقة الذاتية ولوجوده حقيقة الوجود ، وهو أحق بأن تثبت له صفات الكمال على الحقيقة من كل ما سواه . فهذا هو المراد بقولنا : علمه يشارك علم المخلوق فى الحقيقة ، فليس ما يُسمع من العباد من أصواتهم مشابها ولا مماثلاً لما سمعه موسى من صوته إلا كما يشبه ويماثل غير ذلك من صفاته لصفات المخلوقين ، فهذا فى نفس تكلمه سبحانه وتعالى بالقرآن ، والقرآن عند الإمام أحمد وسائر أئمة السُنَّة كلامه تكلّم به ، وتكلّم بالقرآن العربى بصوت نفسه ، وكلّم موسى بصوت نفسه الذى لا يماثل شيئاً من أصوات العباد .

• ما يقوم من الكلام بنفس المتكلم وما يقوم بنفس المبلّغ له :

ثم إذا قرأنا القرآن فإنما نقرؤه بأصواتنا المخلوقة التى لا تماثل صوت الرب ، فالقرآن الذى نقرؤه هو كلام اللّه مبلّغاً عنه لا مسموعاً منه ، وإنما نقرؤه بحركاتنا وأصواتنا ، الكلام كلام البارىء ، والصوت صوت القارىء ، كما دلّ على ذلك الكتاب والسُنَّة مع العقل ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ (١) ، وقال النبى ﷺ : « زَيِّنوا القرآن بأصواتكم » ، وقال الإمام أحمد فى قول النبى ﷺ : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » قال : يُزَيِّنه ويُحَسِّنه بصوته كما قال : « زَيِّنوا القرآن بأصواتكم » ، فنص أحمد على ما جاء به الكتاب والسُنَّة أنّا نقرأ القرآن بأصواتنا ، والقرآن كلام اللّه كله لفظه ومعناه ، سمعه جبريل من اللّه، وبلّغه إلى محمد ﷺ ، وسمعه محمد منه ، وبلّغه محمد إلى الخلق ، والخلق يُبَلّغه بعضهم إلى بعض ويسمعه بعضهم من بعض ، ومعلوم أنهم إذا سمعوا كلام

---

(١) التوبة : ٦

النبى ﷺ وغيره فبلّغوه عنه كما قال : « نَضَرَ اللّهُ امرأً سمع منا حديثاً فبلّغه كما سمعه » ، فهم سمعوا اللّفظ من الرسول بصوت نفسه بالحروف التى تكلّم بها وبلغّوا لفظه بأصوات أنفسهم ، وقد عُلِمَ الفرق بين مَن يروى الحديث بالمعنى لا باللّفظ واللّفظ المبلّغ لفظ الرسول وهو كلام الرسول . فإن كان صوت المبلّغ ليس صوت الرسول وليس ما قام بالرسول من الصفات والأعراض فارقته وما قامت بغيره ، بل ولا تقوم الصفة والعرض بغير محله . وإذا كان هذا معقولاً فى صفات المخلوقين فصفات الخالق أولى بكل صفة كمال وأبعد عن كل صفة نقص ، والتباين الذى بين صفة الخالق والمخلوق أعظم من التباين الذى بين صفة مخلوق ومخلوق ، وامتناع الاتحاد والحلول بالذات للخالق وصفاته فى المخلوق أعظم من الاتحاد والحلول بالذات للمخلوق وصفاته فى المخلوق ، وهذه جمل قد بُسِطَت فى مواضع أُخر .

● شُبهة الجهمية والمعتزلة فى ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الكِتَابَ ﴾ :

هذا مع أن احتجاج الجهمية والمعتزلة بأن كلام المخلوق بقوله : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » مثل كلام الخالق غلط باتفاق الناس حتى عندهم ، فإنّ الذين يقولون هو مخلوق يقولون : إنه خلقه فى بعض الأجسام إما الهواء أو غيره ، كما يقولون : إنه خلق الكلام فى نفس الشجرة فسمعه موسى . ومعلوم أن تلك الحروف والأصوات التى خلقها اللّه ليست مماثلة لما يسمع من العبد وتلك هى كلام اللّه المسموع منه عندهم . كما أن أهل السُنّة يقولون : الذى تكلم هو اللّه بمشيئته ، وليس ذلك مماثلاً لصوت العبد . وأما القائلون بعدم الكلام المعيّن سواء أكان معنى أو حروفاً أو أصواتاً فيقولون : خلق لموسى إدراكاً أدرك به ذلك القديم . وبكل حال فكلام المتكلم إذا سمع من المبلّغ عنه [1] فكيف يكون ذلك فى كلام اللّه تعالى .

---

(١) قد سقط من الناسخ هنا خبر : « فكلام المتكلم » ويُعلم مما سبق وهو أنّ ما قام بنفس المبلّغ غير ما قام بنفس المتكلم المنشىء للكلام ولكنه مثله لتماثل كلام البَشر ، وبه يظهر قوله : « فكيف يكون ذلك فى كلام اللّه تعالى » يعنى : وهو لا يماثل كلام البشر .

فيجب على الإنسان فى مسألة الكلام أن يتحرى أصلين .. أحدهما : تكلم الله بالقرآن وغيره ، هل تكلّم به بمشيئته وقُدرته أم لا ؟ وهل تكلم بكلام قائم بذاته أم خلقه فى غيره ؟

والثانى : بتبليغ ذلك الكلام عن الله وأنه ليس مما يتصف به الثانى وإن كان المقصود بالتبليغ الكلام المبلَّغ . وبسط هذا له موضع آخر .

● سبب ترك الصحابة لنقط المصحف ، ونقط التابعين له وشكله ، وكيف كان :

وأيضاً فهذان المتنازعان إذا قال أحدهما : إنها قديمة وليس لها مبتدأ وشكلها ونقطها محدَث ، وقال الآخر : إنها ليست بكلام الله وأنها مخلوقة بشكلها ونقطها ، قد يُفهم من هذا أنهما أرادا بالحروف : الحروف المكتوبة دون المنطوقة ، والحروف المكتوبة قد تنازع الناس فى شكلها ونقطها ، فإن الصحابة لما كتبوا المصاحف كتبوها غير مشكولة ولا منقوطة ، لأنهم إنما كانوا يعتمدون فى القرآن على حفظه فى صدورهم لا على المصاحف ، وهو منقول بالتواتر محفوظ فى الصدور ، ولو عُدِمَت المصاحف لم يكن للمسلمين بها حاجة ، فإن المسلمين ليسوا كأهل الكتاب الذين يعتمدون على الكتب التى تقبل التغير ، والله أنزل القرآن على محمد فتلقاه تلقياً وحفظه فى قلبه ، لم يُنزِّله مكتوباً كالتوراة ، وأنزله منجماً مفرقاً ليُحفظ فلا يحتاج إلى كتاب ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ ... الآية [1] ، وقال تعالى : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ ﴾ ... الآية [2] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ ﴾ ... الآية [3] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ ... الآية [4].

---

(١) الفرقان : ٣٢
(٢) الإسراء : ١٠٦
(٣) طه : ١١٤
(٤) القيامة : ١٧

وفى الصحيح عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، وكان يحرك شفتيه ، فقال ابن عباس : أنا أحركهما لك كما كان النبى ﷺ يحركهما ، فحرك شفتيه . فأنزل الله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (١) قال : جمعه فى صدرك ثم تقرأه . ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (٢) قال : فاستمع له وأنصت . ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (٣) أى نبينه بلسانك . فكان النبى ﷺ إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبى ﷺ كما أقرأه ، فلهذا لم يكن الصحابة ينقطون المصاحف ويُشَكِّلونها ، وأيضاً كانوا عرباً لا يلحنون فلم يحتاجوا إلى تقييدها بالنقط ، وكان فى اللفظ الواحد قراءتان يقرأ بالياء والتاء مثل : « يعملون » ، و « تعملون » . فلم يقيِّدوه بأحدهما ليمنعوه من الآخر . ثم إنه فى زمن التابعين لما حدث اللحن صار بعض التابعين يُشَكِّل المصاحف وينقطها ، وكانوا يعلمون ذلك بالحمرة ، ويعملون الفتح بنقطة حمراء فوق الحرف ، والكسرة بنقطة حمراء تحته ، والضمة بنقطة حمراء أمامه . ثم مدوا النقطة وصاروا يعملون الشدة بقولك : شد . ويعملون المدَّة بقولك : مد ، وجعلوا علامة الهمزة تشبه العين لأن الهمزة أخت العين . ثم خففوا ذلك حتى صارت علامة الشدَّة مثل رأس السين وعلامة المدة مختصرة كما يختصر أهل الديوان ألفاظ العدد وغير ذلك ، وكما يختصر المحدِّثون « أخبرنا » و « حدثنا » فيكتبون أول اللفظ وآخره على شكل « أنا » وعلى شكل « ثنا » .

وتنازع العلماء هل يُكره تشكيل المصاحف وتنقيطها ؟ على قولين معروفين وهما روايتان عن الإمام أحمد ، لكن لا نزاع بينهم أن المصحف إذا شُكِّلَ ونُقِّطَ وجب احترام الشكل والنقط كما يجب احترام الحرف ، ولا تنازع بينهم أنَّ مِداد النقطة والشَكل مخلوق كما أن مداد الحرف مخلوق ، ولا نزاع

---

(١) القيامة : ١٦ - ١٧ (٢) القيامة : ١٨ (٣) القيامة : ١٩

بينهم أنَّ الشَكل يدل على الإعراب ، والنقط يدل على الحروف ، وأن الإعراب من تمام الكلام العربى .

ويُروى عن أبى بكر وعمر أنهما قالا : حفظ إعراب القرآن أحبُّ إلينا من حفظ بعض حروفه . ولا ريب أنَّ النقطة والشَكلة بمجردهما لا حكم لهما ولا حُرمة ولا ينبغى أن يجرد الكلام فيهما . ولا ريب أن إعراب القرآن العربى من تمامه ويجب الاعتناء بإعرابه . والشكل يبيِّن إعرابه كما تبيِّن الحروف المكتوبة للحرف المنطوق ، كذلك يبيِّن الشكل المكتوب للإعراب المنطوق .

● ما ينبغى لمن تبيَّن له الحق فى المسألة ولمن خفى عليه :

فهذه المسائل إذا تصورها الناس على وجهها تصوراً تاماً ظهر لهم الصواب ، وقلَّت الأهواء والعصبيات ، وعرفوا موارد النزاع ، فمَن تبيَّن له الحق فى شىء من ذلك اتبعه ، ومن خَفِيَ عليه توقَّف حتى يُبيِّنه اللّه له ، وينبغى له أن يستعين على ذلك بالدعاء للّه ، ومن أحسن ذلك ما رواه مسلم فى صحيحه عن عائشة أن النبى ﷺ كان إذا قام من اللَّيل يُصَلِّى يقول : « اللّهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالِمُ الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختُلِفَ فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى مَن تشاء إلى صراط مستقيم » .

* * *

وأقول : القائل الآخر كلامه: « كُتِبَ بها » يقتضى أنه أراد بالحروف ما يتناول المنطوق والمكتوب كما قال النبى ﷺ : « مَن قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقول « ألم » حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف، وميم حرف » قال الترمذى : حديث صحيح . فهنا لم يرد النبى ﷺ بالحرف نفس المداد وشكل المداد ، وإنما أراد الحرف المنطوق . وفى مراده بالحرف قولان .. قيل : هذا اللَّفظ المفرد . وقيل : أراد صلى اللّه عليه وسلم بالحرف الاسم كما قال: ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف .

• معنى الحرف فى اللغة وفى اصطلاح النُحاة :

ولفظ الحرف والكلمة له فى لغة العرب التى كان النبى ﷺ يتكلم بها معنى ، وله فى اصطلاح النُحاة معنى . فالكلمة فى لغتهم هى الجملة التامة ، الجملة الاسمية أو الفعلية ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث المتفق على صحته : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان اللّه وبحمده ، سبحان اللّه العظيم » ، وقال ﷺ : « إنَّ أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شىء ما خلا اللّه باطل » ، وقال : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان اللّه ما يظن أن تبلغ ما بلغت يُكتب له بها رضوان اللّه إلى يوم القيامة ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط اللّه ما يظن أن تبلغ ما بلغت يُكتب له بها سخطه إلى يوم القيامة » ، وقال لأم المؤمنين [١] : « لقد قلتُ بعدك أربع كلمات لو وُزِنت بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهن : سبحان اللّه عدد خلقه ، سبحان اللّه رضاء نفسه ، سبحان اللّه زنة عرشه ، سبحان اللّه مداد كلماته »، ومنه قوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ [٢] ، وقوله : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ [٣] ، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [٤] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [٥] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا ﴾ [٦] ، وقول النبى ﷺ : « مَن قاتلَ لتكون كلمة اللّه هى العُليا فهو فى سبيل اللّه » .. ونظائره كثيرة ، ولا يوجد قط فى الكتاب والسُنَّة وكلام العرب لفظ الكلمة إلا والمراد به الجملة التامة . فكثير من النُحاة

---

(١) لعل اسمها سقط من الناسخ وهى صفية رضى اللّه عنها .

(٢) الكهف : ٥ (٣) الفتح : ٢٦ (٤) آل عمران : ٦٤

(٥) الزخرف : ٢٨ (٦) التوبة . ٤

أو أكثرهم لا يعرفون ذلك ، بل يظنون أن اصطلاحهم فى مسمى الكلمة ينقسم إلى اسم وفعل وحرف هو لغة العرب ، والفاضل منهم [1] يقول :

* وكلمة بها كلام قد يؤم *

ويقولون : العرب قد تستعمل الكلمة فى الجملة التامة وتستعملها فى المفرد ، وهذا غلط لا يوجد قط فى كلام العرب لفظ الكلمة إلا للجملة التامة .

• اصطلاحات المتكلمين والفقهاء المخالفة للُّغة ومنها القديم والمحدَث :

ومثل هذا اصطلاح المتكلمين على أنَّ القديم هو ما لا أول لوجوده أو ما لم يسبقه عدم ، ثم يقول بعضهم : وقد يُستعمل القديم فى المتقدم على غيره سواء أكان أزلياً أو لم يكن ، كما قال تعالى : ﴿ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ [2] ، وقال : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [3] ، وقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [4] ، وقال : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴾ [5] ، وتخصيص القديم بالأول عُرف اصطلاحى ، ولا ريب أنه أولى بالقِدَم فى لغة العرب ، ولهذا كان لفظ المحدث فى لغة العرب بإزاء القديم ، قال تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ [6] ، وهذا يقتضى أنَّ الذى نزل قبله ليس بمحدَث بل متقدم . وهذا موافق للغة العرب الذى نزل بها القرآن ، ونظير هذا لفظ « القضاء » ، فإنه فى كلام اللّه وكلام الرسول المراد به إتمام العبادة وإن كان ذلك فى وقتها كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُواْ فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُواْ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [7] ، وقوله : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم

---

(١) هو ابن مالك صاحب الألفية المشهورة رحمه اللّه .

(٢) يس : ٣٩ (٣) الأحقاف : ١١ (٤) يوسف : ٩٥

(٥) الشعراء : ٧٥ - ٧٦ (٦) الأنبياء : ٢ (٧) الجمعة : ١٠

مَّنَاسِكَكُمْ ﴾ [1] ، ثم اصطلح طائفة من الفقهاء فجعلوا لفظ « القضاء » مختصاً بفعلها فى غير وقتها ، ولفظ « الأداء » مختصاً بما يُفعل فى الوقت ، وهذا التفريق لا يُعرف قَط فى كلام الرسول ، ثم يقولون : قد يُستعمل لفظ «القضاء» فى الأداء فيجعلون اللُّغة التى نزل القرآن بها من النادر ، ولهذا يتنازعون فى مراد النبى ﷺ : « فما أدركتم فصَلُّوا وما فاتكم فاقضوا » - وفى لفظ : « فأتموا » ، فيظنون أنَّ بين اللَّفظين خلافاً وليس الأمر كذلك بل قوله : « فاقضوا » كقوله : « فأتموا » ، لم يرد بأحدهما الفعل بعد الوقت ، بل لا يوجد فى كلام الشارع أمر بالعبادة فى غير وقتها ، لكن الوقت وقتان : وقت عام ووقت خاص لأهل الأعذار كالنائم والناسى إذا صليا بعد الاستيقاظ والذِكر فإنما صليا فى الوقت الذى أمر اللّه به ، وأن هذا ليس وقتاً فى حق غيرهما .

● الغلط فى فهم كلام اللّه ورسوله بتفسيرهما باصطلاحات العلماء:

ومن أعظم أسباب الغلط فى فهم كلام اللّه ورسوله أن ينشأ الرجل على اصطلاح حادث فيريد أن يُفسِّر كلام اللّه بذلك الاصطلاح ويحمله على تلك اللُّغة التى اعتادها . وما ذُكِرَ فى مسمى الكلام مما ذكره سيبويه فى كتابه عن العرب فقال : واعلم إن : « قلت » فى كلام العرب إنما وقعت على أن تحكى ، وإنما تحكى بعد القول ما كان كلاماً قولاً ، وإلاَّ فلا يوجد قَط لفظ الكلام والكلمة إلا للجملة التامة فى كلام العرب ، ولفظ « الحرف » يراد به الاسم والفعل وحروف المعانى واسم حروف الهجاء ، ولهذا سأل الخليل أصحابه : كيف تنطقون بالزاى

---

(١) البقرة : ٢٠٠

من زيد؟ فقالوا : زاى ، فقال : نطقتم بالاسم ، والحرف زه [1] فبيَّن الخليل أنَّ هذه التى تسمى حروف الهجاء هى أسماء .

● اصطلاح النحاة فى تقسيم الكلمة ومَن اعترض عليه :

وكثيراً ما يوجد فى كلام المتقدمين : هذا حرف من الغريب ، يعبرُّون بذلك عن الاسم التام ، فقوله ﷺ : « فله بكل حرف مثله » بقوله [2] : « ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » وعلى نهج ذلك ، و « ذلك » حرف و« الكتاب » حرف ونحو ذلك ، وقد قيل : إن « ذلك » أحرف و « الكتاب » أحرف ، ورُوِىَ ذلك مفسَّراً فى بعض الطرق .

والنُحاة اصطلحوا اصطلاحاً خاصاً فجعلوا لفظ الكلمة يُراد به الاسم أو الفعل أو الحرف الذى هو من حروف المعانى ، لأن سيبويه قال فى أول كتابه : الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ، فجعل هذا حرفاً خاصاً ، وهو الحرف الذى جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ، لأن سيبويه كان حديث العهد بلغة العرب ، وقد عُرِفَ أنهم يسمون الاسم أو الفعل حرفاً ، فقيَّد كلامه بأن قال : وقسَّموا الكلام إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ، وأراد سيبويه أن الكلام ينقسم إلى ذلك قسمة الكل إلى أجزائه لا قسمة الكلى إلى جزئياته ، كما يقول الفقهاء : بأن القسمة كما يقسم العقار والمنقول بين الورثة فيُعطَى هؤلاء قسم غير قسم هؤلاء ، كذلك الكلام هو مؤلَّف من الأسماء والأفعال وحروف المعانى فهو مقسوم إليها . وهذا التقسيم غير تقسيم الجنس إلى أنواعه كما يقال : الاسم ينقسم إلى مُعْرَب ومبنى .

---

(١) الهاء فى قوله : « زه » - ساكنة زيدت لأجل الوقف ، وإنما مسمى الحرف الأول من زَيد «ز » بالفتح ، والعرب لا تقف على متحرك كما أنها لا تبتدىء النطق بساكن .

(٢) كذا فى الأصل الذى طبعنا عنه . ولفظ الحديث : « مَن قرأ حرفاً من كتاب اللّه تعالى فله به حسنة ، الحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول « ألم » حرف ، ولكن أقول : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » أخرجه الترمذى وصححه .

وجاء الجزولى وغيره فاعترضوا على النُحاة فى هذا ولم يفهموا كلامهم فقالوا : كل جنس قُسِّمَ إلى أنواعه أو أشخاص أنواعه ، فاسم المقسوم صادق على الأنواع والأشخاص وإلا فليست أقساماً له ، وأراد بذلك الاعتراض على قول الزجّاج : الكلام اسم وفعل وحرف . والذى ذكره الزجّاج هو الذى ذكره سيبويه وسائر أئمة النُحاة وأرادوا بذلك القسمة الأولى المعروفة وهى قسمة الأمور الموجودة إلى أجزائها كما يُقسِّم العقار والمال ، ولم يريدوا بذلك قسمة الكليات التى لا توجد كليات إلاّ فى الذهن ، كقسمة الحيوان إلى ناطق وبهيم ، وقسمة الاسم إلى المعرب والمبنى . فإن المقسَّم هنا هو معنى عقلى كلى لا يكون كلياً إلا فى الذهن .

* * *

فصل

فى تقسيم النحاة والمقرئين للحروف ومعنى الحرف فى اللُّغة

ولفظ الحرف يُراد به حروف المعانى التى هى قسيمة الأسماء والأفعال ، مثل حروف الجر والجزم ، وحرفى التنفيس ، والحروف المشبهة للأفعال مثل : « إنَّ وأخواتها » ، وهذه الحروف لها أقسام معروفة فى كتب العربية كما يقسمونها بحسب الإعراب إلى ما يختص بالأسماء وإلى ما يختص بالأفعال ، ويقولون : ما اختص بأحد النوعين ولم يكن كالجزء منه كان عاملاً كما تعمل حروف الجر . و « إنَّ وأخواتها » فى الأسماء ، وكما تعمل النواصب والجوازم فى الأفعال ، بخلاف حرف التعريف وحرفى التنفيس - كالسين وسوف - فإنهما لا يعملان لأنهما

كالجزء من الكلمة ، ويقولون : كان القياس فى « ما » أنها لا تعمل لأنها تدخل على الجُمل الاسمية والفعلية ، ولكن أهل الحجاز أعملوها لمشابهتها لـ « ليس » ، وبلغتهم جاء القرآن فى قوله : ﴿ مَا هَذَا بَشَراً ﴾ (١) ، ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ (٢) .

ويُقَسِّمون الحروف باعتبار معانيها إلى حروف استفهام وحروف نفى وحروف تحضيض ... وغير ذلك ، ويُقسِّمونها باعتبار بنيتها كما تُقسَّم الأفعال والأسماء إلى مفرد وثُنائى وثُلاثى ورُباعى وخُماسى . فاسم الحرف هنا منقول عن اللُّغة إلى عُرف النُحاء بالتخصيص ، وإلا فلفظ الحرف فى اللُّغة يتناول الأسماء والحروف والأفعال، وحروف الهجاء تسمى حروفاً، وهى أسماء كالحروف المذكورة فى أوائل السور لأن مسماها هو الحرف الذى هو حرف الكلمة .

وتقسَّم تقسيماً آخر إلى حروف حلقية وشفهية ، والمذكورة فى أوائل السور فى القرآن هى نصف الحروف واشتملت من كل صنف فى أشرف نصفيه : على نصف الحلقية والشفهية والمطبقة والمصمتة ، وغير ذلك من أجناس الحروف .

فإنَّ لفظ « الحرف » أصله فى اللُّغة هو الحد والطرف ، كما يقال حروف الرغيف وحروف الجبل ، قال الجوهرى : حرف كل شىء طرفه وشفيره وحَدُّه ، ومنه حرف الحبل وهو أعلاه المحدَّد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَالآخِرَةَ ﴾ (٣) ، فإن طرف الشىء إذا كان الإنسان عليه لم يكن مستقراً ، فلهذا كان مَن عبد الله على السراء دون الضرَّاء عابداً له على حرف ، تارة يظهره وتارة ينقلب على وجهه كالواقف على حرف الجبل ، فسميت حروف الكلام حروفاً لأنها طرف الكلام وحدُّه ومنتهاه ، إذ كان

---

(١) يوسف : ٣١ (٢) المجادلة : ٢ (٣) الحج : ١١

مبدأ الكلام من نفس المتكلم ومنتهاه حدُّه وحرفه القائم بشفتيه ولسانه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ (١) ، فلفظ الحرف يراد به هذا وهذا وهذا .

• تعليم الإنسان بالقلم وأول ما أنزل الله تعالى من القرآن :

ثم إذا كُتِبَ الكلام فى المصحف سموا ذلك حرفاً فيُراد بالحرف الشكل المخصوص ولكلامه شكل مخصوص هى خطوطهم التى يكتبون بها كلامهم ، ويُراد به المادة ، ويُراد به مجموعهما ، وهذه الحروف المكتوبة تطابق الحروف المنطوقة وتبيِّنها وتدل عليها فسميت بأسمائها إذ كان الإنسان يكتب اللَّفظ بقلمه ، ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢) ، فبيَّن سبحانه فى أول ما أنزله أنه سبحانه هو الخالق الهادى الذى خلق فسوى ، والذى قَدَّرَ فهدى ، كما قال موسى : ﴿ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (٣) ، فالخالق يتناول كل ما سواه من المخلوقات ، ثم خَصَّ الإنسان فقال : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (٤) ، ثم ذكر أنه علم فإن الهدى والتعليم هو كمال المخلوقات .

والعلم له ثلاث مراتب : علمٌ بالجنان ، وعبارةٌ باللِّسان ، وخطٌّ بالبنان (٥) ولهذا قيل : إن لكل شيء أربع وجودات : وجود عينى وعلمى ولفظى ورسمى ،

---

(١) البلد : ٨ ، ٩ (٢) العلق : ١ ، ٥

(٣) طه : ٥٠ (٤) العلق : ٢

(٥) المرتبتان الأوليان مما فُطر عليه الإنسان ، والثالثة وهى الخط صناعة استحدثها من قديم الزمان ، وقد استحدث فى هذا الزمان صناعات أخرى وهى نقل الكلام بالآلات الكهربائية كالتلغراف السلكى والتلغراف الهوائى وألواح الآلة التى تسمى « فونوغراف » ويدخل هذا فى عموم قوله تعالى : ﴿ علَّم الإنسان ما لَمْ يعْلَمْ ﴾ (العلق : ٥) .

وجود فى الأعيان ، ووجود فى الأذهان ، واللسان والبَنان ، لكن الوجود العينى هو وجود الموجودات فى أنفسها واللّه خالق كل شىء ، وأما الذهنى الجنانى فهو العلم بها الذى فى القلوب ، والعبارة عن ذلك هو اللّسانى ، وكتابة ذلك هو الرسمى البَنانى ، وتعليم الخط يستلزم تعليم العبارة واللّفظ ، وذلك يستلزم تعليم العلم فقال : ﴿ عَلَّمَ بِالقَلَمِ ﴾ (١) ، لأن التعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاث ، وأطلق التعليم ثم خص فقال : ﴿ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢) .

● تنازع الناس ، هل الوجود عين الموجود :

وقد تنازع الناس فى وجود كل شىء ، هل هو عين ماهيته أم لا . وقد بُسِطَ الكلام على ذلك فى غير هذا الموضع ، وبيّن أن الصواب من ذلك أنه قد يُراد بالوجود ما هو ثابت فى الأعيان ، ليس هو ماهيتها المتصورة فى الأذهان . لكن اللّه خلق الموجود الثابت فى الأعيان وعلم الماهيات المتصورة فى الأذهان ، كما أنزل بيان ذلك فى أول سورة أنزلها من القرآن . وقد يُراد بالوجود والماهية كليهما ما هو متحقق فى الأعيان ، وما هو متحقق فى الأذهان ، فإذا أريد بهذا وهذا ما هو متحقق فى الأعيان أو ما هو متصور فى الأذهان ، فليس هما اثنين (٣) بل هذا هو هذا . وكذلك الذهن إذا تصور شيئاً فتلك الصورة هى المثال الذى تصورها وذلك هو وجودها الذهنى الذى تتصوره الأذهان . فهذا فصل الخطاب فى هذا الباب .

ومَن تدبر هذه المسائل وأمثالها تبيّن له أن أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (٤) .

---

(١) العلق : ٤ (٢) العلق : ٥

(٣) كانت فى الأصل : « فى الأعيان » ولم يكن المعنى بها ظاهراً .

(٤) النور : ٤٠

وقد بُسِطَ الكلام على أُصول هذه المسائل وتفاصيلها فى مواضع أُخرى . فإنَّ الناس كثر نزاعهم فيها حتى قيل : مسألة الكلام حيَّرت عقول الأنام . ولكن سؤال هذين لا يحتمل البَسط الكثير فإنهما يسألان بحسب ما سمعاه واعتقداه وتصوراه ، فإذا عرف السائل أصل مسألته ولوازمها وما فيها من الألفاظ المجملة والمعانى المشتبهة تبيَّن له أن من الخلق مَن تكلم فى مثل هذه الأسماء بالنفى والإثبات من غير تفصيل فلا بد له أن يقابله آخر بمثل إطلاقه .

• وجوب الاتفاق على ألفاظ الكتاب والسُـــنَّة وتحكيم الأدلة فى غيرها :

ومن الأُصول الكلية أن يُعلَم أن الألفاظ نوعان : نوع جاء به الكتاب والسُنَّة فيجب على كل مؤمن أن يقر بموجب ذلك ، فيثبت ما أثبته اللّه ورسوله ، وينفى ما نفاه اللّه ورسوله ، فاللّفظ الذى أثبته اللّه ، أو نفاه [1] فإن اللّه يقول الحق وهو يهدى السبيل ، والألفاظ الشرعية لها حُرمة . ومن تمام العلم أنْ يبحث عن مراد رسوله بها ليثبت ما أثبته وينفى ما نفاه من المعانى ، فإنه يجب علينا أن نصدقه فى كل ما أخبر ، ونطيعه فى كل ما أوجب وأمر ، ثم إذا عرفنا تفصيل ذلك كان ذلك من زيادة العلم والإيمان ، وقد قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ العِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [2] .

وأما الألفاظ التى ليست فى الكتاب والسُنَّة ولا اتفق السَلَف على نفيها أو إثباتها ، فهذه ليس على أحد أن يوافق مَن نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن

---

(١) كذا فى الأصل ، وقد سقط منه الخبر الذى يتم به الكلام ويُعلم من القرينة ومما بعده وهو : « لا يكون إلا حقاً فى إثباته ونفيه » .

(٢) المجادلة : ١١

مراده ، فإن أراد بها معنى يوافق خبر الرسول أقرَّ به ، وإن أراد بها معنى يخالف خبر الرسول أنكره .

ثم التعبير عن تلك المعانى إن كان فى ألفاظه اشتباه أو إجمال عبَّر بغيرها أو بيَّن مراده بها ، بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرعى ، فإن كثيراً من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة ومعان مشتبهة ، حتى تجد الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على إطلاق ألفاظ ونفيها ، ولو سُئِلَ كل منهما عن معنى ما قاله لم يتصوره ، فضلاً عن أن يعرف دليله ، ولو عرف دليله لم يلزم أن مَن خالفه يكون مخطئاً بل يكون فى قوله نوع من الصواب ، وقد يكون هذا مصيباً من وجه ، وهذا مصيباً من وجه ، وقد يكون الصواب فى قول ثالث .

وكثير من الكتب المصنَّفة فى أصول علوم الدين وغيرها تجد الرجل المصنِّف فيها فى المسألة العظيمة كمسألة القرآن والرؤية والصفات والمعاد وحدوث العالم وغير ذلك يذكر أقوالاً متعددة . والقول الذى جاء به الرسول وكان عليه سَلَف الأمة ليس فى تلك الكتب ولا عرفه مصنِّفوها ولا شعروا به ، وهذا من أسباب توكيد التفريق والاختلاف بين الأمة وهو مما نهيت الأمة عنه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ (١) ، قال ابن عباس : تَبْيَضُّ وجوه أهل السُّنَّة والجماعة وَتَسوَدُّ وجوه أهل البدعة والفُرقة.. وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِى الْكِتَابِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (٣) ، وقد خرج النبى ﷺ على أصحابه وهم يتنازعون فى القَدَر ، وهذا يقول : ألم يقل الله كذا ؟ وهذا يقول : ألم يقل الله

---

(١) آل عمران : ١٠٥ - ١٠٦ (٢) الأنعام : ١٥٩ (٣) البقرة : ١٧٦

كذا ؟ فقال : « أبهذا أُمرتُم ؟ أم إلى هذا دُعيتُم ؟ إنما هَلَكَ مَن كان قبلكم بهذا : أن ضربوا كتاب اللّه بعضه ببعض ، انظروا ما أُمرتُم به فافعلوه ، وما نُهيتُم عنه فاجتنبوه » ومما أُمِرَ الناس به أن يعملوا بمحكم القرآن ويؤمنوا بمتشابهه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقد كُتِبَ فى أُصول هذه المسائل قواعد متعددة وأُصول كثيرة ، ولكن هذا الجواب كُتِبَ وصاحبه مستوفز فى قعدة واحدة ، واللّه تعالى يهدينا وسائر إخواننا لما يحبه ويرضاه . والحمد للّه رب العالمين .

* * *

فصل

فى أنَّ القرآن كله كلام اللّه وحده ليس فيه شئ من كلام الملك أو الرسول

فى بيان أنَّ القرآن العظيم كلام اللّه العزيز العليم ليس شئ منه كلاماً لغيره ، لا جبريل ولا محمد ولا غيرهما ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ * وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١) ، فأمره أن يقول : ﴿ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ ،

---

(١) النحل : ٩٨ - ١٠٣

والضمير فى قوله : ﴿ نَزَّلَهُ ﴾ عائد على : ﴿ مَا ﴾ فى قوله : ﴿ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ ، فالمراد به القرآن كما يدل عليه سياق الكلام ، وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ فيه إخبار بأنه أنزله ، لكن ليس فى هذه اللفظة بيان أن روح القدس نزل به ولا أنه مُنَزَّل منه .

ولفظ الإنزال فى القرآن قد يرد مقيَّداً بالإنزال منه كنزول القرآن ، وقد يرد مقيَّداً بالإنزال من السماء ويراد به العلو ، فيتناول نزول المطر من السحاب ، ونزول الملائكة من عند الله ... وغير ذلك . وقد يرد مطلقاً فلا يختص بنوع من الإنزال بل ربما يتناول الإنزال من رءوس الجبال كقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) ، والإنزال من ظهور الحيوان كإنزال الفحل الماء ... وغير ذلك ، فقوله : ﴿ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ بيان لنزول جبريل به من الله عَزَّ وجَلَّ ، فإن روح القدس هنا هو جبريل بدليل قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (٢) ، وهو الروح الأمين كما فى قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (٣) ، وفى قوله: ﴿ الأمِينُ ﴾ دلالة على أنه مؤتمن على ما أُرْسِلَ به لا يزيد فيه ولا ينقص ، فإن الرسول الخائن قد يُغيِّر الرسالة كما قال تعالى فى صفته فى الآية الاخرى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ (٤) .

● فرق الجهمية القائلين بخلق القرآن :

وفى قوله : ﴿ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ (٥) دلالة على أمور : منها بطلان قول مَن

---

(١) الحديد : ٢٥ (٢) البقرة : ٩٧ (٣) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥
(٤) التكوير : ١٩ - ٢١ (٥) الأنعام : ١١٤

يقول إنه كلام مخلوق خلقه فى جسم من الأجسام المخلوقة - كما هو قول الجهمية الذين يقولون بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية والضرارية وغيرهم[1]، فإنَّ السَلَف كانوا يسمون كل مَن نفى الصفات وقال : إنَّ القرآن مخلوق وأنَّ اللّه لا يُرى فى الآخرة - جهمياً ، فإن أول مَن ظهرت عنه بدعة نفى الأسماء والصفات ، وبالغ فى نفى ذلك ، فله فى هذه البدعة مزية المبالغة فى النفى والابتداء بكثرة إظهار ذلك والدعوة إليه ، وإن كان الجعد بن درهم [2] قد سبقه إلى بعض ذلك ، فإن الجعد أول مَن أحدث ذلك فى الإسلام فضحى به خالد بن عبد اللّه القسرى بواسط يوم النحر ، وقال : « يا أيها الناس ، ضحوا تقبَّلَ اللّه ضحاياكم ، فإنى مُضَحٍ بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن اللّه لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلِّم موسى تكليماً ، تعالى اللّه عما يقول الجعد علواً كبيراً » ثم نزل فذبحه ، ولكن المعتزلة إن وافقوا جهماً فى بعض ذلك فهم يخالفونه فى مسائل غير ذلك ، كمسائل الإيمان والقَدَر وبعض مسائل الصفات أيضاً ، ولا يبالغون فى النفى مبالغته ، وجهم يقول : إنَّ اللّه لا يتكلم، أو يقول : إنه متكلم بطريق المجاز ، وأما المعتزلة فيقولون : إنه يتكلم حقيقة ، لكن قولهم فى المعنى هو قول جهم ، وجهم ينفى الأسماء أيضاً كما نفتها الباطنية ومَن وافقهم من الفلاسفة ، وأما جمهور المعتزلة فلا تنفى الأسماء .

فالمقصود أنَّ قوله : ﴿ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ فيه بيان أنه منزَّل من اللّه لا من مخلوق من المخلوقات . ولهذا قال السَلَف : منه بدأ ، أى هو الذى تكلَّم به لم يبتدىء من غيره كما قال الخلقية .

---

(١) المعتزلة : من القدرية أصحاب واصل بن عطاء ، والنجارية : أصحاب الحسن بن محمد النجار ، والضرارية : أصحاب ضرار بن عمرو ، وانظر هامش جـ ١ ص ٢١١ و جـ ٣ ص ١٢ (البلتاجى) .

(٢) الجعد بن درهم : من أصحاب الآراء المنحرفة وممن اتهموا بالزندقة ، قتله خالد القسرى أمير العراق لزندقته بأمر هشام بن عبد الملك حوالى عام ١١٨ هـ ، وانظر هامش جـ ٣ ص ٢٨ (البلتاجي) .

ومنها أنَّ قوله : ﴿ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ فيه بطلان قول مَن يجعله فاض على نفس النبى من العقل الفعَّال أو غيره [1] كما يقول ذلك طوائف من الفلاسفة والصابئة . وهذا القول أعظم كفراً وضلالاً من الذى قبله .

ومنها أنَّ هذه الآية أيضاً تُبطل قول مَن قال إنَّ القرآن العربى ليس منزَّلاً من اللّه بل مخلوق ، إما فى جبريل أو محمد أو جسم آخر غيرهما ، كما يقول ذلك الكلابية والأشعرية الذين يقولون : القرآن العربى ليس هو كلام اللّه وإنما كلامه المعنى القائم بذاته والقرآن العربى خُلِقَ ليدل على ذلك المعنى ، ثم إما أن يكون خُلِقَ فى بعض الأجسام : الهواء أو غيره . أو ألهمه جبريل فعبَّر عنه بالقرآن العربى ، أو ألهمه محمد فعبَّر عنه بالقرآن العربى ، أو يكون جبريل أخذه من اللّوح المحفوظ أو غيره .

فهذه الأقوال التى تقدمت هى تفريع على هذا القول ، فإن هذا القرآن العربى لا بد له من متكلم تكلَّم به أولاً قبل أن يصل إلينا . وهذا القول يوافق قول المعتزلة ونحوهم فى إثبات خلق القرآن العربى ، وكذلك التوراة العبرية ، ويفارقه من وجهين ، أحدهما : أن أولئك يقولون : إنَّ المخلوق كلام اللّه ، وهم يقولون : إنه ليس كلام اللّه لكن يسمى كلام اللّه مجازاً ، هذا قول أئمتهم وجمهورهم . وقال طائفة من متأخريهم : بل لفظ الكلام يُقال على هذا وهذا بالاشتراك اللّفظى ، لكن لفظ هذا الكلام ينقض أصلهم فى إبطال قيام الكلام بغير المتكلم به ، ومع هذا لا يقولون إن المخلوق كلام اللّه حقيقة كما يقوله

---

(١) هذا يشبه قول بعض فلاسفة أوروبا أن وحى الأنبياء يفيض من أنفسهم فى أحوال مخصوصة تستولى عليها وتستغرق إدراكها ووجدانها كاستيلاء كراهة الوثنية على نبينا ﷺ . ويرده أن الوحى إليه لم يكن مقصوراً على إبطال الوثنية وخرافاتها وإثبات التوحيد وما يناسبه من العبادات والفضائل ، بل فيه من أخبار الغيب الماضية والآتية ومن الحكمة واصول التشريع ما لا يُعقل أن يكون نابعاً من نفس رجل أمى ولا متعلم . وإنما يعقل أن يكون وحياً من عالِم الغيب والشهادة .

مع قولهم إنه كلام حقيقة ، بل يجعلون القرآن العربى كلاماً لغير الله وهو كلام حقيقة ، وهذا شر من قول المعتزلة . وهذا حقيقة قول الجهمية . ومن هذا الوجه نقول : المعتزلة أقرب . وقول الآخرين هو قول الجهمية المحضة ، لكن المعتزلة فى المعنى موافقون لهؤلاء وإنما ينازعونهم فى اللفظ .

الثانى : أنَّ هؤلاء يقولون : لله كلام هو معنى قديم قائم بذاته ، والخلقية يقولون : لا يقوم بذاته كلام ، ومن هذا الوجه الكلاَّبية خير من الخلقية فى الظاهر ، لكن جمهور الناس يقولون إنَّ أصحاب هذا القول عند التحقيق لم يثبتوا كلاماً له حقيقة غير المخلوق ، فإنهم يقولون إنه معنى واحد هو الأمر والنهى والخبر ، إن عُبِّرَ عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عُبِّرَ عنه بالعِبرية كان توراة . وإن عُبِّرَ عنه بالسريانية كان إنجيلاً . ومنهم مَن قال : هو خمس معان .

وجمهور العقلاء يقولون إنَّ فساد هذا معلوم بالضرورة بعد التصور التام، والعقلاء الكثيرون لا يتفقون على الكذب وجحد الضرورات من غير تواطئ واتفاق كما فى الأخبار المتواترة ، وأما مع التواطئ فقد يتفقون على الكذب عمداً ، وقد يتفقون على جحد الضرورات وإن لم يعلم كل منهم أنه جاحد للضرورة ولم يفهم حقيقة القول الذى يعتقده لحسن ظنه فيمَن يقلِّد قوله ومحبته ليصير [1] ذلك القول كما اتفقت النصارى والرافضة وغيرهم من الطوائف على مقالات يُعلم فسادها بالضرورة .

وقال جمهور العقلاء : نحن إذا عرَّبنا التوراة والإنجيل لم يكن معنى ذلك معنى القرآن ، بل معانى هذا ليست معانى هذا ..... [2] ، وكذلك معنى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [3] ليس هو معنى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ [4] ، ولا معنى

---

(١) كذا فى الأصل ولعله : « لنصر ذلك القول » .

(٢) بياض بالأصل قليل ، يظهر أنه موضع شاهد كالشواهد التى بعده .

(٣) الإخلاص : ١ (٤) المسد : ١

آية الكرسى معنى آية الدَّيْنْ ، وقالوا : إذا جوَّزتم أن تكون الحقائق المتنوعة شيئاً واحداً فجوِّزوا أن يكون العلم والقُدرة والكلام والسمع والبصر صفة واحدة. فاعترف أئمة هذا القول بأن هذا الإلزام ليس لهم عنه جواب عقلى .

ثم منهم مَن قال : الناس فى الصفات إما مثبت لها قائل بالتعدد ، وإما ناف لها ، وأما إثباتها واتحادها فخلاف الإجماع ، وهذه طريقة القاضى أبى بكر وأبى المعالى وغيرهما . ومنهم مَن اعترف بأنه ليس له عنه جواب كأبى حسن الآمدى وغيره .

• إبطال قوله : ﴿ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ لما يخالف مذهب السَلَف :

والمقصود هنا أنَّ هذه الآية تُبَيِّن بطلان هذا القول كما تُثبت بطلان غيره ، فإن قوله : ﴿ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [١] يقتضى نزول القرآن من ربه ، والقرآن اسم للقرآن العربى لفظه ومعناه . بدليل قوله : ﴿ فَإِذَا قَرَأتَ القُرْآنَ ﴾ [٢] ، وإنما يقرأ القرآن العربي لا يُقرأ معانيه المحددة . وأيضاً فضمير المفعول فى قوله : ﴿ نَزَّلَهُ ﴾ عائد إلى ﴿ مَا ﴾ فى قوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ [٣] ، فالذى أنزله الله هو الذى نزَّله روح القدس ، فإذا كان روح القدس نزل بالقرآن العربى لزم أن يكون نزَّله من الله ، فلا يكون شئ منه نزَّله من عين من الأعيان المخلوقة ولا نزَّله من نفسه .

وأيضا فإنه قال عقب هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ ... الآية [٤] . وهم كانوا يقولون: إنما يعلمه هذا القرآن العربى بَشر ، لم يكونوا يقولون إنما يُعلِّمه بَشر

---

(١) النحل : ١٠٢

(٢) النحل : ٩٨

(٣) النحل : ١٠١

(٤) النحل : ١٠٣

معانيه فقط ، بدليل قوله : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (١) فإنه تعالى أبطل قول الكفار بأن لسان الذى ألحدوا إليه فجعلوه هو الذى يُعلِّم محمداً القرآن لسان أعجمى ، والقرآن لسان عربى مبين ، فلو كان الكفار قالوا : يعلمه معانيه فقط لم يكن هذا رداً لقولهم ، فإن الإنسان قد يتعلم من الأعجمى شيئاً بلُغة ذلك الأعجمى ويُعبِّر عنه بعبارته . وقد اشتُهِرَ فى التفسير أن بعض الكفار كانوا يقولون : هو تعلّمه من شخص كان بمكة أعجمى ، قيل إنه كان مولى لابن الحضرمى .

● بطلان التفريق بين كلام اللّه وكتاب اللّه والقرآن :

وإذا كان الكفار جعلوا الذى يُعلّمه ما نزل به روح القدس بَشراً واللّه أبطل ذلك بأن لسان ذاك أعجمى وهذا لسان عربى مبين ، عُلِمَ أنَّ روح القدس نزل باللّسان العربى المبين ، وأنَّ محمداً لم يؤلّف نظم القرآن بل سمعه من روح القدس ، وإذا كان روح القدس نزل به من اللّه ، عُلِمَ أنه سمعه منه ولم يؤلّفه هو ، وهذا بيان من اللّه أنَّ القرآن الذى هو اللّسان العربى المبين سمعه روح القدس من الله ، وكذلك قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾...الآية (٢) ، والكتاب اسم للكلام العربى بالضرورة والاتفاق ، فإن الكلابية أو بعضهم يُفرِّق بين كلام اللّه وكتاب اللّه ، فيقول : كلام اللّه هو المعنى القائم بالذات وهو غير مخلوق ، وكتابه هو المنظوم المؤلّف العربى وهو المخلوق ، والقرآن يُراد به تارة هذا وتارة هذا ، واللّه تعالى قد سمى نفس مجموع اللّفظ والمعنى قرآناً وكتاباً وكلاماً ، فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ طسم * تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجِنِّ ﴾ ... الآية (٥) ، فبيَّن أن الذى سمعوه هو القرآن وهو الكتاب، وقال :

---

(١) النحل : ١٠٣ (٢) الأنعام : ١١٤ (٣) الحجر : ١

(٤) الشعراء ١ - ٢ ، و القصص ١ - ٢ (٥) الأحقاف : ٢٩

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ ﴾ ... الآية [١] ، وقال : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ ... الآية [٢] ، وقال : ﴿ يَتْلُواْ صُحُفاً ﴾ ... الآية [٣] . وقال : ﴿ وَالطُّورِ ﴾ ... الآية [٤] . وقال : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً ﴾ ... الآية [٥] . لكن لفظ الكتاب قد يُراد به المكتوب فيكون هو الكلام ، وقد يُراد به ما يُكتب فيه كقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ ...الآية [٦]. وقال : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً ﴾ ...الآية [٧].

• نصوص الآيات فى أنَّ القرآن العربى كلام اللّه أنزله كتاباً مفصلاً :

والمقصود هنا أنَّ قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ [٨] يتناول نزول القرآن العربى على كل قول . وقد أخبر أنَّ : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالحَقِّ ﴾ [٩] إخبار مستشهد بهم لا مكذب لهم . وقال : إنهم يعلمون ذلك ، لم يقل : إنهم يظنونه أو يقولونه ، والعلم لا يكون إلا حقاً مطابقاً للمعلوم بخلاف القول والظن الذى ينقسم إلى حق وباطل ، فعُلِمَ أن القرآن العربى ينزل من اللّه لا من الهواء ولا من اللّوح ولا من جسم آخر ولا من جبريل ولا محمد ولا غيرهما ، وإذا كان أهل الكتاب يعلمون ذلك فمَن لم يقر بذلك من هذه الأمة كان أهل الكتاب المقرون بذلك خيراً منه من هذا الوجه .

وهذا لا ينافى ما جاء عن ابن عباس وغيره من السَلَف فى تفسير قوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ القَدْرِ ﴾ [١٠] أنه أنزله إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم

---

(١) البروج : ٢١ (٢) الواقعة : ٧٧ (٣) البينة : ٢
(٤) الطور : ١ (٥) الأنعام : ٧ (٦) الواقعة : ٧٧
(٧) الإسراء : ١٣ (٨) الأنعام : ١١٤ (٩) الأنعام : ١١٤
(١٠) القدر : ١

أنزله بعد ذلك منجَّماً مفرَّقاً بحسب الحوادث ، ولا ينافى أنه مكتوب فى اللَّوح المحفوظ قبل نزوله ، كما قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ ...الآية [١] ، وقال : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ ... الآية [٢] ، وقال : ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ ... الآية [٣] ، وقال : ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الكِتَابِ ﴾ ...الآية [٤] ، وكونه مكتوباً فى اللَّوح المحفوظ وفى صحف مطهَّرة بأيدى الملائكة لا ينافى أن يكون جبريل نزل به من اللَّه سواء كتبه اللَّه قبل أن يُرسل به جبريل أو غير ذلك ، وإذا كان قد أنزله مكتوباً إلى بيت العزة جملة واحدة فى ليلة القَدْر فقد كتبه كله قبل أن ينزله ، واللَّه تعالى يعلم ما كان وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون ، وهو سبحانه قَدَّر مقادير الخلائق وكتب أعمال العباد قبل أن يعملوها ، كما ثبت ذلك بالكتاب والسُّنَّة وآثار السَّلف ، ثم إنه يأمر الملائكة بكتابها بعدما يعملونها ، فيقابل من الكتابة المتقدمة على الوجود والكتابة المتأخرة عنها فلا يكون بينهما تفاوت . هكذا قال ابن عباس وغيره من السَّلف وهو حق ، فإذا كان ما يخلقه ثابتاً عنه قبل كتبه أن يخلقه فكيف يُستبعد أن يكتب كلامه الذى يُرسل به ملائكته قبل أن يُرسلهم به .

● تلقى جبريل القرآن العربى عن اللَّه تعالى لا معناه :

ومَن قال إن جبريل أخذ القرآن عن الكتاب لم يسمعه من اللَّه كان هذا باطلاً من وجوه : منها أن يقال : إنَّ اللَّه تعالى كتب التوراة لموسى بيده فبنو إسرائيل أخذوا كلام اللَّه من الكتاب الذى كتبه هو سبحانه فيه [٥] ، فإن كان محمد أخذه من جبريل وجبريل عن الكتاب كان بنو إسرائيل أعلا من محمد بدرجة ،

---

(١) البروج : ٢١ (٢) الواقعة : ٧٧

(٣) عبس : ١١ (٤) الزخرف : ٤

(٥) الذى عندهم أن الذى كتبه اللَّه فى الألواح هو الوصايا العشر لا كل ما يسمونه التوراة .

ومَن قال إنه ألقى إلى جبريل معانى وأن جبريل عبَّر عنها بالكلام العربى ، فقوله يستلزم أن يكون جبريل ألهمه إلهاماً ، وهذا الإلهام يكون لآحاد المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (٢) ، وقد أوحى إلى سائر النبيين ، فيكون هذا الوحى الذى لا يكون لآحاد الأنبياء والمؤمنين أعلا من أخذ محمد القرآن عن جبريل لأن جبريل الذى علَّمه لمحمد هو بمنزلة الواحد من هؤلاء ، ولهذا زعم ابن عربى أنَّ خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، قال : لأنه يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه المَلك الذى يوحى به إلى الرسول ، فجعل أخذه وأخذ المَلك الذى جاء إلى الرسول من معدن واحد ، وادعى أن أخذه عن اللّه أعلا من أخذ الرسول للقرآن ، ومعلوم أن هذا من أعظم الكفر ، وإن هذا القول من جنسه .

● إنقسام كل من التكليم والوحى إلى عام وخاص :

وأيضاً فاللّه تعالى يقول : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ ﴾ ... الآية (٣) . ففضل موسى بالتكليم على غيره ممن أُوحِىَ إليهم . وهذا يدل على أمور : على أن اللّه يكلم عبده تكليماً زائداً على الوحى الذى هو قسيم التكليم الخاص ، فإن لفظ التكليم والوحى كل منهما ينقسم إلى عام وخاص ، والتكليم العام هو المقسوم فى قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلا وَحْياً ﴾ ... الآية (٤) . والتكليم المطلق هو قسيم الوحى الخاص ليس قسماً منه ، وكذلك لفظ الوحى قد يكون عاماً فيدخل فيه التكليم الخاص كما فى قوله لموسى : ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ (٥) ، وقد يكون قسيم التكليم الخاص كما فى سورة الشورى . وهذا يُبطل قول مَن يقول : الكلام معنى واحد قائم بالذات ، فإنه

---

(١) المائدة : ١١١ (٢) القصص : ٧ (٣) النساء : ١٦٣

(٤) الشورى : ٥١ (٥) طه : ١٣

حينئذ لا فرق بين التكليم الذى خُصَّ به موسى ، والوحى العام الذى هو لآحاد العباد ، ومثل هذا قوله فى الآية الأخرى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْياً أَوْ من وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَايَشَاءُ ﴾ (١) ، فإنه فرَّق بين الإيحاء وبين التكليم من وراء حجاب وبين إرسال الرسول يوحى بإذنه ما يشاء ، فدلَّ على أن التكليم من وراء حجاب كما كلم موسى أمر غير الإيحاء .

وأيضاً فقوله : ﴿ تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ حم * تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ العَلِيمِ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴾ (٤) ... وأمثال ذلك يدل على أنه منزَّل من الله لا من غيره . وكذلك قوله تعالى : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (٥) فإنه يدل على أنه مبلِّغ ما أُنزِّلَ إليه من ربه وأنه مأمور بتبليغ ذلك .

وأيضاً فهم يقولون : إنه معنى واحد ، فإن كان موسى سمع جميع المعنى فقد سمع جميع كلام الله ، وإن كان سمع البعض فقد استمع بعضه فقد تبعض ، وكلاهما ينقض قولهم ، فإنهم يقولون إنه معنى واحد لا يتعدد ولايتبعض . فإن كان ما سمعه موسى والملائكة هو ذلك المعنى كله كان كل منهم عَلِمَ جميع كلام الله ، وكلامه متضمن لجميع خبره رجميع أمره ، فيلزم أن يكون كل واحد ممن كلَّمه الله وأنزل عليه شيئاً فى كلامه عالماً بجميع أخبار الله وأوامره ، وهذا معلوم الفساد بالضرورة . وإن كان الواحد من هؤلاء إنما سمع بعضه فقد تبعض كلامه وذلك يناقض قولهم .

وأيضاً فقوله : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ

---

(١) الشورى : ٥١ (٢) الزمر : ١ ، والجاثية : ٢ ، و الأحقاف : ٢
(٣) غافر : ١ ، ٢ (٤) فصلت : ١ - ٢ (٥) المائدة : ٦٧
(٦) النساء : ١٦٤

مُوسَى لِميقَاتِنَا ﴾ [1] ، وقوله تعالى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ ﴾ ...الآيات [3] دليل على تكليم موسى . والمعنى المجرَّد لا يُسمع بالضرورة . ومَن قال إنه يُسمع فهو مكابر - ودليل أنه ناداه والنداء لا يكون إلا صوتاً مسموعاً لا يُعقل فى لغة العرب لفظ النداء بغير صوت مسموع لا حقيقة ولا مجازاً . وقد قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ ﴾ ...إلى قوله : ﴿ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [4] .

● توقيت نداء اللّه عباده يوم القيامة وخطابه للملائكة :

وأيضاً فقوله : ﴿ فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ [5] وفى هذا دليل على أنه حينئذ نودى ولم يناد قبل ذلك ، و ﴿ لَمَّا ﴾ فيها من معنى الظرف ، كما فى قوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [6] ، ومثل هذا قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [7] ، ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [8] فإنّ النداء وقت بظرف محدود ، فدلّ على أن النداء يقع فى ذلك الحين دون غيره وجعل الظرف للنداء لا يُسمع النداء إلا فيه .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [9] ، وقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ [10] ... وأمثال ذلك مما فيه توقيت بعض أقوال الرب بوقت معين فإن الكلابية ومَن وافقهم من

---

(١) الأعراف : ١٤٣ (٢) مريم : ٥٢ (٣) طه : ١١
(٤) النمل : ٨ (٥) طه : ١١ - ١٢ (٦) الجن : ١٩
(٧) القصص : ٦٢ (٨) القصص : ٦٥ (٩) البقرة : ٣٠
(١٠) البقرة : ٣٤

أصحاب الأئمة الأربعة يقولون : إنه لا يتكلم بمشيئته وقُدرته بل الكلام المعيَّن لازم لذاته كلزوم الحياة لذاته ، ومن هؤلاء مَن قال : إنه معنى واحد لأن الحروف والأصوات متعاقبة يمتنع أن تكون قديمة . ومنهم مَن قال : بل الحروف والأصوات قديمة الأعيان وأنها مترتبة فى مقارنة وجودها لم تزل ولا تزال قائمة بذاته .

• موافقة الأشـعرية والمعتزلة للسَـلَف من وجه ومخالفتهما من وجه :

ومنهم مَن قال : بل الحروف قديمة الأعيان بخلاف الأصوات ، وكل هؤلاء يقولون إن التكليم والنداء ليس إلا مجرد خلق إدراك فى المخلوق بحيث يسمع ما لم يزل ولا يزال لا أنه يكون هناك كلام يتكلم اللّه به بمشيئته وقُدرته ولا تكليم بكلام اللّه بمشيئته وقُدرته ، بل تكليمه عندهم جعل العبد سامعاً لما كان موجوداً قبل سمعه بمنزلة ما يجعل الأعمى بصيراً لما كان موجوداً قبل رؤيته من غير إحداث شئ منفصل عنه ، وعندهم لما جاء موسى لميقات ربه سمع النداء القديم ، لا أنه حينئذ نودى ، ولهذا يقولون : إنه يسمع كلامه لخلقه بدل قول الناس : يكلم خلقه ، وهؤلاء يردون على الخلقية الذين يقولون : القرآن مخلوق، ويقولون عن أنفسهم : إنهم أهل السُنَّة الموافقون للسَلَف الذين قالوا : القرآن كلام اللّه غير مخلوق ، وليس قولهم قول السَلَف ، لكن قولهم أقرب إلى قول السَلَف من وجه .

أما كون قولهم أقرب ، فلأنهم يثبتون كلاماً قائماً بنفس اللّه ، وهذا قول السَلَف بخلاف الخلقية الذين يقولون : ليس كلامه إلا ما خلقه فى غيره ، فإن قول هؤلاء مخالف لقول السَلَف . وأما كون الخلقية أقرب فلأنهم يقولون : إنَّ اللّه يتكلم بمشيئته وقُدرته ، وهذا قول السَلَف ، وهؤلاء عندهم لا يقدر اللّه على

شئ من كلامه فليس كلامه بمشيئته واختياره ، بل كلامه عندهم كحياته ، وهم يقولون : الكلام عندنا صفة ذات لا صفة فعل ، والخلقية يقولون : صفة فعل لا صفة ذات ، ومذهب السَلَف أنه صفة فعل وصفة ذات معاً ، فكل منهما موافق للسَلَف من وجه دون وجه .

واختلافهم فى أفعاله ومسائل القَدَر بنسبة اختلافهم فى كلامه تعالى ، فإن المعتزلة يقولون : إنه يفعل لحكمة مقصودة وإرادة الإحسان إلى العباد ، لكن لا يثبتون لفعله حكمة تعود إليه . وأولئك يقولون : لا يفعل لحكمة ولا لمقصود أصلاً ، فأولئك أثبتوا حكمة لكن لا تقوم به ، وهؤلاء لا يثبتون له قصداً يتصف به ولا حكمة تعود إليه ، وكذلك فى الكلام ، أولئك أثبتوا كلاماً هو فعله لا يقوم به ، وهؤلاء يقولون : ما لا يقوم به لا تعود حكمته إليه ، والفريقان يمنعون أن تقوم به حكمة مرادة له ، كما يمنع الفريقان أن يقوم به كلام وفعل يريده . وقول أولئك أقرب إلى قول السَلَف والفقهاء إذ أثبتوا الحكمة والمصلحة فى أفعاله وأحكامه ، وأثبتوا كلاماً يتكلم به بقُدرته ومشيئته ، وقول هؤلاء أقرب إلى قول السَلَف إذ أثبتوا الصفات وقالوا : لا يوصف بمجرد المخلوق المنفصل عنه الذى لم يقم به أصلاً ، ولا يعود إليه حكم شئ لم يقم به ، فلا يكون متكلماً بكلام لم يقم به ، ولا قديراً بقُدرة لم تقم به .

فكل من المعتزلة والأشعرية فى مسائل كلام اللّه وأفعال اللّه وافقوا السَلَف والأئمة من وجه ، وخالفوهم من وجه ، وليس قول أحدهم قول السَلَف دون الآخر، لكن الأشعرية فى جنس مسائل الصفات والقَدَر أقرب إلى قول السَلَف والأئمة من المعتزلة .

● معنى قوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ أنه بلّغه لا أنه أنشأه :

فإن قيل : فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [1] وهذا يدل على أن الرسول أحدث الكلام العربى ، قيل : هذا باطل ، وذلك أنّ اللّه ذكر هذا فى

---

(١) الحاقة : ٤٠

موضعين ، والرسول فى أحد الموضعين محمد ، والرسول فى الآية الأخرى جبريل ، قال تعالى فى سورة الحاقة : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ ﴾ ...الآية [1] ، فالرسول هنا محمد ﷺ . وقال فى سورة التكوير : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [2] فالرسول هنا جبريل ، فلو كان أضافه إلى الرسول لكونه أحدث حروفه أو أحدث منه شيئاً لكان الخبران متناقضين ، فإنه إن كان أحدهما الذى أحدثها امتنع أن يكون الآخر هو الذى أحدثها .

وأيضاً فإنه قال : ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ولم يقل : لقول مَلَك ولا نبى ، ولفظ « الرسول » يستلزم مرسلاً له ، فَدلَّ ذلك على أنَّ الرسول مُبَلِّغ له عن مرسله لا أنه أنشأ منه شيئاً من جهة نفسه ، وهذا يدل على أنه أضافه إلى الرسول لأنه بلَّغه وأدَّاه ، لا لأنه أنشأ منه شيئاً وابتدأه .

● المبلغون يبلِّغون كلام الرسول بحركاتهم وأصواتهم :

وأيضاً فإنَّ اللَّه قد كَفَّرَ مَن جعله قول البَشر بقوله : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ [3] ومحمد بَشر ، فمن قال إنه قول محمد فقد كفر ، ولا يفرق بين أن يقول بَشر أو جنى أو مَلَك ، فمن جعله قولاً لأحد من هؤلاء فقد كفر ، ومع هذا فقد قال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ فجعله قول الرسول البَشرى مع تكفيره مَن يقول إنه قول البَشر ، فعُلِم أن المراد بذلك أن الرسول بلَّغه عن مرسله ، لا أنه قوله من تلقاء نفسه ، وهو كلام اللَّه تعالى الذى أرسله ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [4] ، فالذى بلَّغه الرسول هو كلام اللَّه تعالى

---

(١) الحاقة : ٤٠ - ٤١ (٢) التكوير : ١٩ - ٢١

(٣) يعنى إلى قوله : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ - والآيات من سورة المدثر : ١٨ - ٢٥

(٤) التوبة : ٦

لا كلامه ، ولهذا كان النبى ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف ويقول : « ألا رجل يحملنى إلى قومه لأبلّغ كلام ربى فإنّ قريشاً قد منعونى أن أبلّغ كلام ربى » (رواه أبو داود وغيره) ، والكلام كلام مَن قاله مبتدئاً لا كلام مَن قاله مبلّغاً مؤدياً .

وموسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة ، والمؤمنون يسمعه بعضهم من بعض ، فسماع موسى سماع مطلق بلا واسطة ، وسماع الناس سماع مقيّد بواسطة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ (١) ففرّق بين التكليم من وراء حجاب كما كلّم موسى وبين التكليم بواسطة الرسول كما كلّم الأنبياء بإرسال رسوله إليهم ، والناس يعلمون أنّ النبى ﷺ إذا تكلم بكلام تكلم بحروفه ومعانيه بصوته ﷺ ، ثم المبلّغون عنه يبلّغون كلامه بحركاتهم وأصواتهم كما قال ﷺ : « نَضَرَ اللَّهُ امرءاً سمع منا حديثاً فبلّغه كما سمعه » ، فالمستمع منه مبلّغ حديثه كما سمعه ، لكن بصوت نفسه لا بصوت الرسول ، فالكلام هو كلام الرسول تكلّم به بصوته ، والمبلّغ بلّغ كلام رسول الله بصوت نفسه .

• شُبهة القائلين بخلق القرآن والقائلين أنَّ صوت العبد به غير مخلوق :

وإذا كان هذا معلوماً فى تبليغ كلام المخلوق فكلام الخالق أولى بذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ (٢) ، وقال النبى ﷺ : « زَيِّنُوا القرآن بأصواتكم » فجعل الكلام كلام البارئ ، وجعل الصوت الذى يقرؤه به العبد صوت القارئ . وأصوات العباد ليست هى الصوت الذى ينادى الله به ويتكلم به ، كما نطقت النصوص بذلك بل

---

(١) الشورى : ٥١ (٢) التوبة : ٦

ولا مثله ، فإنَّ الله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (١) لا فى ذاته ولا صفاته ولا أفعاله ، فليس علمه مثل علم المخلوقين ولا قُدرته مثل قدرتهم ، ولا كلامه مثل كلامهم ، ولا نداؤه مثل ندائهم ، ولا صوته مثل أصواتهم ، فمَن قال عن القرآن الذى يقرؤه المسلمون : ليس هو كلام الله ، أو هو كلام غير الله - فهو ملحد مبتدع ضال ، ومَن قال : إنَّ أصوات العباد أو المداد الذى يُكتب به القرآن قديم أزلى فهو ملحد مبتدع ، بل هذا القرآن هو كلام الله ، وهو مثبت فى المصاحف ، وكلام الله مبلَّغ عنه ، مسموع من القُرَّاء ليس مسموعاً منه ، فالإنسان يرى الشمس والقمر والكواكب بطريق المباشرة ويراها فى ماء أو مرآة ، فهذه رؤية مقيَّدة بالواسطة ، وتلك مطلقة بطريق المباشرة ، ويسمع من المبلِّغ عنه بواسطة ، والمقصود بالسماع هو كلامه فى الموضعين كما أن المقصود بالرؤية هو المرئى فى الموضعين .

فمَن عرف ما بين الحالين من الاجتماع والافتراق والاختلاف والاتفاق زالت عنه الشبهة التى تصيب كثيراً من الناس فى هذا الباب ، فإنَّ طائفة قالت : هذا المسموع كلام الله ، والمسموع صوت العبد وصوته مخلوق ، فكلام الله مخلوق . وهذا جهل فإنه مسموع من المبلِّغ ، ولا يلزم إذا كان صوت المبلِّغ مخلوقاً أن يكون نفس الكلام مخلوقاً ، وطائفة قالت : هذا المسموع صوت العبد وهو مخلوق والقرآن ليس بمخلوق ، ولا يكون هذا المسموع كلام الله ، وهذا جهل ، فإن المخلوق هو الصوت لا نفس الكلام الذى يُسمع من المتكلم به ومن المبلِّغ عنه ، وطائفة قالت : هذا كلام الله وكلام الله غير مخلوق ، فيكون هذا الصوت غير مخلوق ، وهذا جهل . فإنه إذا قيل : هذا كلام الله فالمشار إليه هو الكلام من حيث هو ، وهو الثابت إذا سُمِعَ من الله وإذا سُمِعَ من المبلِّغ عنه ، وإذا قيل للمسموع : إنَّه كلام الله ، فهو كلام الله مسموعاً من المبلِّغ عنه لا مسموعاً منه ،

---

(١) الشورى : ١١

فهو مسموع بواسطة صوت العبد وصوت العبد مخلوق ، وأما كلام الله منه فهو غير مخلوق حيث ما تصرف ، وهذه نكت قد بُسِطَ الكلام فيها فى غير هذا الموضع .

* * *

فصل

فى اختلاف أدلة المتكلمين على إثبات الصانع

وما ترتب عليه من البدع

فإن قيل : ما منشأ هذا النزاع والاشتباه والتفرق والاختلاف ؟ قيل : منشؤه هو الكلام الذى ذمه السَلَف وعابوه ، وهو الكلام المشتبه المشتمل على حق وباطل ، فيه ما يوافق العقل والسمع ، وفيه ما يخالف العقل والسمع ، فيأخذ هؤلاء جانب النفى المشتمل على نفى الحق والباطل ، وهؤلاء جانب الإثبات المشتمل على إثبات حق وباطل ، وجماعه هو الكلام المخالف للكتاب والسُنَّة وإجماع السَلَف . فكل كلام خالف ذلك فهو باطل ، ولا يخالف ذلك إلا كلام مخالف للعقل والسمع .

وذلك أنه لما تناظروا فى مسألة حدوث العالَم وإثبات الصانع استدلت الجهمية والمعتزلة ومَن وافقهم من طوائف الكلام على ..... [1] بأنَّ مالا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، ثم إنَّ المستدلين بذلك على حدوث الاجسام قالوا : إنَّ الأجسام لا تخلو عن الحوادث ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، ثم تنوعت طرقهم فى الأدلة فى المسألة المتقدمة فتارة يثبتونها بأنَّ الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان ، وتارة يثبتونها بأنَّ الأجسام لا تخلو عن الاجتماع والافتراق وهما حادثان ، وتارة يثبتونها بأنَّ الأجسام لا تخلو عن

---

(١) بياض فى الأصل ، والمعروف أنهم استدلوا بما ذكر على قدم الصانع واجب الوجود .

الأكوان الأربعة : الاجتماع والافتراق والحركة والسكون ، وهى حادثة . وهذه طرق المعتزلة ومَن وافقهم على أنَّ الأجسام قد تخلو عن بعض أنواع الأعراض ، وتارة يثبتونها بأنَّ الجسم لا يخلو من كل جنس من الأعراض عن عرض منه ، ويقولون : إنَّ الأعراض يمتنع بقاؤها لأن العَرَض لا يبقى زمانين ، وهى الطريقة التى اختارها الآمدى وزيَّف ما سواها ، وذكر أن جمهور أصحابه اعتمدوا عليها ، وقد وافقهم عليها طائفة من الفقهاء من أصحاب الأئمة الأربعة كالقاضى أبى يعلى والجوينى والباجى وغيرهم .

• الاستدلال على حدوث العالَم بملازمة الحوادث وامتناع حوادث لا أول لها :

وأما الهشامية والكرامية [1] وغيرهما من الطوائف الذين لا يقولون بحدوث كل جسم يقولون : إنَّ القديم تقوم به الحوادث ، فهؤلاء إذا قالوا بأنَّ ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث كما فى قول الكرامية وغيرهم موافقة للمعتزلة فى هذا الأصل فإنهم قالوا : إنَّ الجسم القديم لا يخلو عن الحوادث بخلاف الأجسام المحدَثة .

والناس متنازعون فى السكون هل هو أمر وجودى أو عدمى ، فمَن قال إنه وجودى قال : الجسم الذى لا يخلو عن الحركة والسكون فإذا انتفت عنه الحركة فالسكون به وجودى . وهذا قول مَن يحتج بتعاقب الحركة والسكون على حدوث المتصف بذلك ، ومَن قال إنه عدمى ، لم يلزم من عدم الحركة عن المحل ثبوت أن السكون وجودى . فمن قال : إنه تقوم به الحركة أو الحوادث بعد أن لم تكن ، مع قوله بامتناع تعاقب الحوادث كما هو فى قول الكرامية ، وغيرهم يقولون :

---

(١) الهشامية : أصحاب هشام بن عمرو الفوطى ، والكرامية أصحاب أبو عبد الله محمد بن كرام . (البلتاجى) .

إذا قامت به الحركة لم يعدم بقيامها سكون وجودى ، بلى ذلك عندهم بمنزلة قولهم مع المعتزلة والأشعرية وغيرهم ، فإنه يفعل بعد أن لم يكن فاعلاً ولا يقولون إنَّ عدم الفعل أمر وجودى ، كذلك الحركة عند هؤلاء .

وكان كثير من أهل الكلام يقولون : ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث ، بناء على أنَّ هذه مقدمة ظاهرة بأن ما لا يسبق الحادث فلا بد أن يقارنه أو يكون بعده ، وما قارن الحوادث فهو حادث ، وما كان بعده فهو حادث ، وهذا الكلام مجمل ، فإنه إذا أريد به ما لا يخلو عن الحوادث المعيَّنة أو ما لا يسبق الحادث المعيَّن فهو حق بلا ريب ولا نزاع فيه ، وكذلك إذا أريد بالحادث حكم ما له أول أو ما كان بعد العدم ونحو ذلك . وأما إذا أريد الحوادث الأمور التى تكون شيئاً بعد شئ لا إلى أول ، وقيل : إنه ما لا يخلو عنها وما لم يخل فهو حادث - لم يكن ذلك ظاهراً ولا بيِّناً . بل هذا المقام ، حار فيه كثير من الأفهام ، وكثر فيه النزاع والخصام . ولهذا صار المستدلون بقولهم ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث - يعلمون أن هذا الدليل لا يتم إلا اذا أثبتوا امتناع حوادث لا أول لها ، فذكروا فى ذلك طرقاً قد تكلمنا عليها فى غير هذا الموضع .

● نظريتا « حوادث لا أول لها » و « وحدوث ما لازم الحوادث » :

وهذا الأصل تنازع الناس فيه على ثلاثة أقوال : فقيل : ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، وبامتناع حوادث لا أول لها مطلقاً . وهذا قول المعتزلة ومَن اتبعهم من الكرامية والأشعرية ومَن دخل معهم من الفقهاء وغيرهم . وقيل : بل يجوز دوام الحوادث مطلقاً ، وليس كل ما قارب حادثاً بعد حادث لا إلى أول يجوز أن يكون حادثاً ، بل يجوز أن يكون قديماً سواء أكان واجباً بنفسه أو بغيره . وربما عبَّر عنه بالعلة والمعلول والفاعلية والمفعول ونحو ذلك . وهذا قول الفلاسفة القائلين بقِدَم العالَم والأفلاك كأرسطو وأتباعه مثل ثامبطوس

والإسكندر الإفرديوسى وبوملس والفارابى وابن سينا وأمثالهم ، وأما جمهور الفلاسفة المتقدمين على أرسطو فلم يكونوا يقولون بهذا ، وقيل : بل إن كان الملتزم للحوادث ممكناً بنفسه وجب أن يكون حادثاً ، فإن كان واجباً بنفسه لم يجز أن يكن حادثاً ، وهذا قول أئمة أهل الملل وأساطين الفلاسفة وهو قول جماهير أهل الحديث .

• مأخذ خلق القرآن من نظرية امتناع قيام الحوادث به تعالى :

وصاحب هذا القول يقول : ما لا يخلو عن الحوادث وهو ممكن بنفسه فهو حادث ، وما لا يخلو عن الحوادث وهو معلول أو مفعول أو مبتدع أو مصنوع فهو حادث ، لأنه إن كان مفعولاً ملتزماً للحوادث امتنع أن يكون قديماً ، فإن القديم المعلول لا يكون قديماً إلا إذا كان له موجب قديم بذاته يستلزم معلوله بحيث يكون معه أزلياً لا يتقدم عنه ، وهذا ممتنع ، فإنَّ ما استلزم الحوادث يمتنع أن يكون فاعله موجباً بذاته يستلزم معلوله فى الأزل ، فإن الحوادث المتعاقبة شيئاً بعد شئ لا يكون مجموعها فى الأول ولا يكون شئ منها أزلياً بل الأزلى هو ذاتها واحد بعد واحد ، والموجب بذاته الملتزم لمعلوله فى الأزل لا يكون معلوله شيئاً بعد شئ سراء أكان صادراً عنه بواسطة أو بغير واسطة ، فإن ما كان واحداً بعد واحد يكون متعاقباً حادثاً شيئاً بعد شئ فيمتنع أن يكون معلولاً مقارباً لعلته فى الأزل ، بخلاف ما إذا قيل إنَّ المقارن لذلك هو الموجب بذاته الذى يفعل شيئاً بعد شئ ، فإنه على هذا لا يكون فى الأزل موجباً بذاته ولا علة سابقة تامة فلا يكون معه فى أول شئ من المخلوقات ، لكن فاعليته للمفعولات تكون شيئاً بعد شئ ، وكل مفعول يأخذ عند وجوده كمال فاعليته ، إذ المؤثر التام الملتزم لجميع شروط التأثير لا يتخلف عنه أثره ، إذ لو تخلف لم يكن مؤثراً تاماً ، فوجود الأثر يستلزم وجود المؤثر التام ، ووجود المؤثر التام ، يستلزم وجود الأثر ، فليس فى الأول مؤثر تام ، فليس مع الله شئ من مخلوقاته قديم

بقِدَمه ، والأول ليس هو حداً محدداً ولا وقتاً معيناً بل كل بتقدير العقل من الغاية التى ينتهى إليها ، فالأول قبل ذلك كما هو قبل ما قدره ، فالأزل لا أول له ، كما أنَّ الأبد لا آخر له . وفى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ كان يقول : « أنت الأول فليس قبلك شئ ، وأنت الآخر فليس بعدك شئ » ، فلو قيل : إنه مؤثر تام فى الأزل لشئ من الأشياء لزم أن يكون مقارناً له دائماً ، وامتنع أن يقوم بالأثر شئ من الحوادث ، لأن كل حادث يحدث لا يحدث إلا إذا وجد مؤثره التام عند حدوثه ، وإن كانت ذات المؤثر موجودة قبل ذلك لكن لا بد من وجود شروط التأثير عند وجود الأثر وإلا لزم الترجيح من غير مرجح وتخلف المعلول عن العلة التامة ووجود الممكن بدون المرجح التام وكل هذا ممتنع ، وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

* * *

فصل

فى نظرية الأشعرية والكلاَّبية فى قِدَم الكلام النفسى دون اللفظى

وإذا عُرِفَ الأصل الذى منه تفرع نزاع الناس فالذين قالوا : ما لا يسبق الحوادث فهو حادث ، تنازعوا فى كلام الله تعالى ، فقال كثير من هؤلاء : الكلام لا يكون إلا بمشيئة المتكلم وقُدرته فيكون حادثاً كغيره من الحوادث ، ثم قالت طائفة : والرب تعالى لا يقوم به الحوادث فيكون الكلام مخلوقاً فى غيره ، فجعلوا كلامه مخلوقاً من المخلوقات ، ولم يُفرِّقوا بين : « قال » و « فعل » ، وقد عُلِمَ أنَّ المخلوقات لا يتصف بها الخالق فلا يتصف بما يخلقه فى غيره من الألوان والأصوات والروائح والحركة والعلم والقُدرة والسمع والبصر ، فكيف يتصف بما يخلقه فى غيره من الكلام ، ولو جاز ذلك لكان

ما يخلقه من إنطاق الجمادات علامة ، ومَن عَلِمَ أنه خالق كلام العباد وأفعالهم يلزمه أن يقول : كل كلام فى الوجود فهو كلامه ، كما قال بعض الاتحادية [1] :

وكل كلام فى الوجود كلامه   سـواء علينا نثـره ونظامـه

وهذا قول الجهمية والنجارية والضرارية وغيرهم ، فإن هؤلاء يقولون : إنه خالق أفعال العباد وكلامهم ، مع قولهم إن كلامه مخلوق فيلزمهم هذا ، وأما المعتزلة فلا يقولون إنَّ اللّه تعالى خالق أفعال العباد لكن الحُجَّة توجب القول بذلك ، وقالت طائفة : بل الكلام لا بد أن يقوم بالمتكلم ويمتنع أن لا يكون كلامه إلا مخلوقاً فى غيره ، وهو متكلم بمشيئته وقُدرته ، فيكون كلامه حادثاً بعد أن لم يكن لامتناع حوادث لا أول لها ، وهذا قول الكرامية وغيرهم . وقال كثير من هؤلاء الذين يقولون بامتناع حوادث لا أول لها مطلقاً : الكلام لازم لذات الرب كلزوم الحياة ، ليس هو متعلقاً بمشيئته وقُدرته ، بل هو قديم كقِدَم الحياة ، إذ لو قلنا إنه بمشيئته وقُدرته لزم أن يكون حادثاً وحينئذ يلزم أن يكون مخلوقاً أو قائماً بذاته ، فيلزم قيام الحوادث به ، وذلك مستلزم لتسلسل الحوادث لأن القابل للشئ لا يخلو عنه أو عن ضده ، قالوا : وتسلسل الحوادث ممتنع إذ التفريع على هذا الأصل .

● اختلاف العلماء فى قِدَم حروف القرآن والأصوات به :

ثم إنَّ هؤلاء لما قالوا بقِدَم عين الكلام تنازعوا فيه ، فقالت طائفة : القديم لا يكون حروفاً ولا أصواتاً ، لأن تلك الحروف لا تكون كلاماً إلا إذا كانت متعاقبة ، والقديم لا يكون مسبوقاً بغيره ، فلو كانت الميم من « بسم » قديمة مع كونها مسبوقة بالسين والباء لكان القديم مسبوقاً بغيره وهذا ممتنع ، فيلزم أن يكون القديم هو المعنى فقط ولا يجوز تعدده ، لأنه لو تعدد لكان اختصاصه

(١) ابن عربى .

بقدر دون قدر ترجيحاً من غير مرجح ، وإلا كان لا ينافى لزوم وجود أعداد لا نهاية لها فى آن واحد . قالوا : وهذا ممتنع ، فيلزم أن يكون معنى واحداً هو الأمر والخبر ومعنى التوراة والإنجيل والقرآن ، وهذا أصل قول الكلابية والأشعرية .

وقالت طائفة من أهل الكلام والحديث والفقهاء وغيرهم : بل هو حروف قديمة الأعيان لم تزل ولا تزال ، وهى مترتبة فى ذاتها لا فى وجودها كالحروف الموجودة فى المصحف وليس بأصوات قديمة ، ومنهم مَن قال : بل هو أيضاً أصوات قديمة ، ولم يُفرِّق هؤلاء بين الحروف المنطوقة التى لا توجد إلا متعاقبة وبين الحروف المكتوبة التى توجد فى وقت واحد كما يُفرِّق بين الأصوات والمداد ، فإنَّ الأصوات لا تبقى بخلاف المداد فإنه جسم يبقى . فإذا كان الصوت لا يبقى امتنع أن يكون الصوت المعيَّن قديماً ، لأن ما وجب قِدَمه ، لزم بقاؤه وامتنع عدمه .

والحروف المكتوبة قد يُراد بها نفس الشكل القائم بالمداد وما يقدِّر تقدير المداد كالشكل المصنوع فى حجر وورق فإزالة بعض أجزائه ..... (١) .

وقد يُراد بالحروف نفس المداد ، وأما الحروف المنطوقة فقد يُراد بها أيضاً الأصوات المقطَّعة المؤلَّفة ، وقد يراد بها حدود الأصوات وأطرافها كما يُراد بالحروف فى الجسم حده ومنتهاه ، فيقال : حرف الرغيف وحرف الجبل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ (٢) ...ونحو ذلك ، وقد يُراد بالحروف الحروف الخيالية وهى ما يسجل فى باطن الإنسان من الكلام المؤلَّف المنظوم قبل أن يُتكلم به .

---

(١) سقط من الأصل خبر المبتدأ فتركنا له بياضاً يضعه فيه مَن علمه .

(٢) الحج : ١١

وقد تنازع الناس : هل يتمكن وجود حروف بدون أصوات قديمة لم تزل ولا تزال ، ثم القائلون بقِدَم الأصوات المعيَّنة تنازعوا فى المسموع من القارئ : هل سُمِعَ منه الصوت القديم ؟ قيل : المسموع هو الصوت القديم ، وقيل : بل المسموع هو صوتان أحدهما القديم والآخر المحدَث ، فما لا بد منه فى وجود القرآن فهو القرآن ، وما زاد على ذلك فهو المحدَث ، وتنازعوا فى القرآن : هل يقال إنَّه حال فى المصحف والصدور أم لا ؟ يقال على قولين : فقيل هو ظاهر فى المحدَث ليس بحال فيه ، وقيل : بل القرآن حال فى الصدور والمصاحف .

فهؤلاء الخلقية والحادثية والاتحادية والإقرانية أصل قولهم : إنَّ ما لا يسبق الحوادث فهو حادث مطلقاً ، ومَن قال بهذا الأصل فإنه يلزم بعض هذه الأقوال أو ما يشبه ذلك ، فإنه إما أن يجعل كلام اللّه حادثاً أو قديماً ، وإذا كان حادثاً إما أن يكون حادثاً فى غيره ، وإما أن يكون حادثاً فى ذاته ، وإذا كان قديماً فإما أن يكون القديم المعنى فقط أو اللفظ ، أو كلاهما ، فإذا كان القديم هو المعنى فقط لزم أن لا يكون الكلام المقروء كلام اللّه . ثم الكلام فى ذلك المعنى قد عُرِف .

وأما قِدَم اللفظ فهذا لم يقل به أحد ، لكن من الناس مَن يقول : إنَّ الكلام القديم هو اللفظ ، وأما معناه هو داخل فى مسمى الكلام . فهذا يقول : الكلام القديم هو اللفظ فقط ؛ إما الحروف المؤلفة وإما الحروف والأصوات ، لكنه يقول إنَّ معناه قديم .

• مذهب القائلين بحوادث لا أول لها وقِدَم العالَم :

وأما الفريق الثانى الذين قالوا بجواز حوادث لا أول لها مطلقاً ، وأنَّ القديم يجوز أن يعتقب عليه الحوادث مطلقاً وإن كان ممكناً لا واجباً بنفسه ، فهؤلاء هم القائلون بقِدَم العالَم كما يقولون بقِدَم هذه الأفلاك ، وأنها لم تزل ولا تزال معلولة لعلّة قديمة أزلية ، لكن المنتسبون إلى الملل كابن سينا ونحوه منهم قالوا : إنها صادرة عن الواجب بنفسه الموجب لها بذاته .

وأما أرسطو وأتباعه فإنهم قالوا : إنَّ لها علّة غائية تتحرك للتشبه بها فهى تحركها كما يحرك المعشوق عاشقه ، ولم يثبتوا لها مبدعاً قائماً بذاته . وإنما أثبت واجب الوجود بطريقة ابن سينا وأتباعه ، وحقيقة قول هؤلاء : وجود الحوادث بلا محدث أصلاً .

أما على قول مَن جعل الأزل علّة غائية للحركة فظاهر ، فإنه لا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعلاً لها ، فقولهم فى حركات الأفلاك نظير قول القدرية فى حركة الحيوان ، وكل من الطائفتين قد تناقض قولهم ، فإنَّ هؤلاء يقولون بأن فعل الحيوان صادر عن غيره لكون القُدرة والداعى يستلزمان وجود الفعل ، والقُدرة والداعى كلاهما من غير العبد ، فيقال لهم : تقولون هكذا فى حركة الفَلَك بقدرته وداعيه أنه يجب أن يكونا صادرين عن غيره ، وحينئذ فيكون الواجب بنفسه هو المحدث لتلك الحوادث شيئاً بعد شئ ، وإن كان ذلك بواسطة العقول ، وهذا القول الذى يقوله ابن سينا وأتباعه باطل أيضاً لأن الموجب بذاته القديم الذى يقارنه موجبه ومقتضاه يمتنع أن يصدر عنه حادث بواسطة أو بلا واسطة ، فإنَّ صدور الحوادث عن العلّة التامة الأزلية ممتنع بذاته .

وإذا قالوا بحركة توسطه قيل لهم : فالكلام إنما هو فى حدوث الحركة ، فإنَّ الحركة الحادثة شيئاً بعد شئ يمتنع أن يكون المقتضى لها علّة تامة أزلية مستلزمة لمعلولها ، فإنَّ ذلك جمع بين النقيضين . إذ القول بمقارنة المعلول لعلته فى الأزل ووجوده معها يناقض أن يتخلف المعلول أو شئ من المعلول عن الأزل ، فصار حقيقة قولهم : إن الحوادث العلوية والسفلية لا يحدث بها .

وهؤلاء يقولون : كلام اللّه ما يفيض على النفوس الصافية كما أن ملائكة اللّه عندهم ما يتشكل فيها من الصور النورانية ، فلا يثبتون له كلاماً خارجاً عما فى نفوس البَشر ، ولا ملائكة خارجة عما فى نفوسهم غير العقول العشرة والنفوس الفَلَكية التسعة ، مع أنَّ أكثرهم يقولون إنها أعراض .

وقد تبيَّن فى غير هذا الموضع أنَّ ما يثبتونه من المجردات العقلية الحوادث [١] التى هى العقول والنفوس والمواد والصور إنما وجودها فى الأذهان لا فى الأعيان .

● مذهب الذين فرَّقوا بين الواجب والممكن فى كلام اللّه :

وأما الصنف الثالث الذين فرقُوا بين الواجب والممكن ، والخالق ،والمخلوق، والغنى الذى لا يفتقر إلى غيره والفقير الذى لا قوام له إلا بالغير ، فقالوا : كل ما قارن الحوادث من الممكنات فهو حادث كائن بعد أن لم يكن ، وهو مخلوق مصنوع مربوب ، وأنه يمتنع أن يكون فيما هو فقير ممكن مربوب شيئاً قديماً فضلاً عن أن يقارن حوادث لا أول لها ، ولهذا كانت حركة الفَلَك دليلاً على حدوثه كما تقدم التنبيه عليه . وأما الرب تعالى إذا قيل : لم يزل متكلماً إذا شاء ولم يزل فاعلاً ، لم يكن دوام كونه متكلماً بمشيئته وقُدرته ودوام كونه فاعلاً بمشيئته وقُدرته ممتنعاً ، بل هذا هو الواجب ، لأن الكلام صفة كمال لا نقص فيه ، فالرب تعالى أحق أن يتصف به من كل موصوف بالكلام ، إذ كل كمال يثبت للمخلوق فالحق أولى به ، لأن القديم الواجب الخالق أحق بالكمال من المحدَث الممكن المخلوق ، ولأن كل كمال يثبت للمخلوق فإنما هو من الخالق وما جاز اتصافه به من الكمال وجب له ، فإنه لو لم يجب له لكان إما ممتنعاً وهو محال بخلاف الفرض ، وإما ممكناً يتوقف ثبوته له على غيره ، والرب تعالى لا يحتاج فى ثبوت كماله إلى غيره ، فإن معطى الكمال أحق بالكمال ، فيلزم أن يكون غيره أكمل منه أو كان غيره معطياً له الكمال وهذا ممتنع ، بل هو بنفسه المقدسة مستحق لصفات الكمال فلا يتوقف ثبوت كونه متكلماً على غيره ، فيجب ثبوت كونه متكلماً وأن ذلك لم يزل ولا يزال . والمتكلم بمشيئته وقُدرته

(١) لعله : للحوادث - فليتأمل .

أكمل ممن يكون الكلام لازماً له بدون قُدرته ومشيئته ، والذى لم يزل يتكلم إذا شاء أكمل ممن صار الكلام يمكنه بعد أن لم يكن الكلام ممكناً له [1] .

● الحروف المفردة وأسماء الأعلام فى القرآن وفى كلام الناس :

وحينئذ فكلامه قديم مع أنه يتكلم بمشيئته وقُدرته ، وإن قيل إنه ينادى ويتكلم بصوت لا يلزم من ذلك قِدَم صوت معيَّن ، وإذا كان قد تكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل بمشيئته وقُدرته لم يمتنع أن يتكلم بالباء قبل السين ، وإن كان نوع الباء والسين قديماً لم يستلزم أن تكون الباء المعيَّنة والسين المعيَّنة قديمة ، لما عُلِمَ من القرآن من الفرق بين النوع والعين ، وهذا الفرق ثابت فى الكلام والإرادة والسمع والبصر وغير ذلك من الصفات وبه تحل هذه الإشكالات الواردة على وحدة هذه الصفات وتعددها وقِدَمها وحدوثها ، وكذلك تزول به الإشكالات الواردة فى أفعال الرب وقِدَمها وحدوثها وحدوث العالم .

وإذا قيل : إنَّ حروف المعجم قديمة بمعنى النوع ، كان ذلك ممكناً بخلاف ما إذا قيل : اللفظ الذى نطق به زيد وعمرو قديم ، فإن هذا مكابرة للحس ، والمتكلم يعلم أن حروف المعجم كانت موجودة قبل وجودها بنوعها ، وأما نفس الصوت المعيَّن الذى قام به التقطيع والتأليف المعيَّن فيُعلم أنَّ عينه لم تكن موجودة قبله .

● أصل رواية سجود الحروف لآدم إلا الألف ومعناها :

والمنقول عن الإمام أحمد وغيره من أئمة السُنَّة مطابق لهذا القول ، ولهذا أنكروا على مَن زعم أنَّ حرفاً من حروف المعجم مخلوق ، وأنكروا على مَن قال : لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف فقالت : لا أسجد حتى أؤمر ، مع أن هذه الحكاية نُقلت لأحمد عن سرى السقطى وهو نقلها عن بكر بن خنيس العابد ،

---

(١) هذا المذهب هو الذى قرره شيخنا فى رسالة التوحيد بأوضح بيان عند إثبات الصفات ولكنه لم يفصل فروعه الآتية .

ولم يكن قصد أولئك الشيوخ بها إلا إثبات أنَّ العبد الذى يتوقف فعله على الأمر والشرع هو أكمل من العبد الذى يعبد الله بغير شرع ، فإنَّ كثيراً من العباد يعبدون الله بما تحبه قلوبهم ، وإن لم يكونوا مأمورين به ، فقصد أولئك الشيوخ أنَّ مَن عبد الله بالأمر ولم يفعل شيئاً حتى يؤمر به ، فهو أفضل ممن عبده بما لم يؤمر به ، وذكروا هذه الحكاية الإسرائيلية شاهدة لذلك ، مع أنَّ هذه لا إسناد لها ولا يثبت بها حكم . ولكن الإسرائيليات إذا ذُكرت على طريق الاستشهاد بها لما عرف صحته لم يكن بذكرها بأس .

وقصدوا بذلك الحروف المكتوبة لأن الألف منتصبة وغيرها ليس كذلك مع أن هذا أمر اصطلاحى وخط غير العرب لا يماثل خط العرب ، ولم يكن قصد أولئك الأشياخ أن نفس الحروف المنطوقة التى هى مبانى أسماء الله الحُسنى وكتبه المنزَّلة مخلوقة ثابتة عن الله ، بل هذا شئ لعله لم يخطر بقلوبهم ، والحروف المنطوقة لا يُقال فيها بأنها منتصبة ولا ساجدة ، فمن احتج بهذا من قولهم على أنهم يقولون إنَّ الله لم يتكلم بالقرآن العربى ولا بالتوراة العبرية فقد قال عنهم ما لم يقولوه .

وأما الإمام أحمد فإنه أنكر إطلاق هذا القول وما يُفهم منه عند الإطلاق وهو أنَّ نفس حروف المعجم مخلوقة ، كما نُقِلَ عنه أنه قال : ومن زعم أنَّ حرفاً من حروف المعجم مخلوق فقد سلك طريقاً إلى البدعة ، قال إنَّ ذلك مخلوق ، وقد قال إنَّ القرآن مخلوق ، ولا ريب أنه مَن جعل نوع الحروف مخلوقاً ثابتاً عن الله كائناً بعد إن لم يكن لزم عنده أن يكون كلام الله العربى والعبرى ونحوهما مخلوقاً ، وامتنع أن يكون الله متكلماً بكلامه الذى أنزله إلى عباده ، فلا يكون شئ من ذلك كلامه .

• مذهب السَلَف والأئمة كالشافعى وأحمد فى القرآن :

فطريقة الإمام أحمد وغيره من السَلَف مطابقة للقول الثابت الموافق لصريح المعقول وصحيح المنقول .

وقال الشيخ الإمام أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخى فى كتابه الذى سماه « الفصول فى الأصول » : سمعتُ الإمام أبا منصور محمد بن أحمد يقول : سمعت الشيخ أبا حامد الاسفرايينى يقول : مذهبى ومذهب الشافعى وفقهاء الأمصار أنَّ القرآن كلام اللّه غير مخلوق ، ومَن قال مخلوق فهو كافر ، والقرآن حمله جبريل عليه السلام مسموعاً من اللّه تعالى ، والنبى ﷺ سمعه من جبريل ، والصحابة سمعوه من النبى ﷺ ، وهو الذى نتلوه بألسنتنا وفيما بين الدفتين ، وما فى صدورنا مسموعاً ومكتوباً ومحفوظاً ، وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام اللّه غير مخلوق ، ومَن قال مخلوقاً فهو كافر عليه لعائن اللّه والملائكة والناس أجمعين .

والكلام فى هذه الأمور مبسوط فى غير هذا الموضع وذكر ما يتعلق بهذا الباب من الكلام فى سائر الصفات كالعلم والقُدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام فى تعدد الصفات وإيجادها وقِدَمها وحدوثها ، أو قِدَم النوع دون الأعيان ، أو إثبات صفة كلية ، فإنَّ عمومها متأولة بالأعيان مع تجدد كل معيَّن من الأعيان أو غير ذلك مما قيل فى هذا الباب ، فإنَّ هذه أمور مشكلة ومحارات للعقول ولهذا اضطرب فيها طوائف من الناس ونُظَّارهم ، واللّه يهدى مَن يشاء إلى صراط مستقيم ، واللّه سبحانه أعلم .. « انتهى » .

* * *